لوركا

شاعر الأندلس

تأليف

ماهر البطوطى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٣

الغلاف والاخراج الفنى :

جرجس ممتاز

غرناطـــة

سئل لوركا يوما عن سقوط الحكم العربى لغرناطة فى عام ١٤٩٢ ميلادية ، فأجاب قائلا :

« ـ لقد كان يوما أسود ، رغم أنهم يذكرون لنا عكس ذلك فى المدرسة · لقد ضاعت حضارة مدهشة ، وشعر ، وفلك ، ومعمار، ورقة لا نظير لها فى العالم ، وحلت محلها مدينة فقيرة ، خانعة ، تزخر بطالبى الصدقات ، وحيث توجد الآن أسوأ طبقة برجوازية فى اسبانيا » ·

وتعد هذه العبارات أصدق دليل على مدى تأثر الشاعر الفنان « **فديريكو غرسيه لوركا** » بمسقط رأسه وبيئته الغرناطية التى نشأ فى أحضانها ، بكل ما تنبض فيها من أجواء عربية وأندلسية بقيت آثارها على مر القرون · ولقد استبانت تلك الأجواء فى شعره وفى مسرحياته التى استلهم فيها الروح الشعبية فى قرى الأندلس ومدنه ·· ومن غريب الطالع أن يرتبط موت الشاعر فى عام ١٩٣٦ باسم عربى كذلك ، اذ أن مصرعه الفاجع قد وقع فى بقعة لاتزال تعرف باسمها العربى وهو « عين الدمعة » بقرية « فرنار » من أرباض غرناطة · وهكذا كان مولد الشاعر وموته فى تلك المدينة الأندلسية التى ارتبطت باسمه وأعماله · غرناطة ، تلك المدينة الحبيبة الى قلب كل عربى · غرناطة ، آخر معقل للاسلام وللعرب فى اسبانيا · تلك البلدة الجميلة التى تقع أجزاء منها فوق تلال عدة ، وتنبسط أجزاء أخرى تحت أقدام تلك التلال ، وتمتد فى الغرب منها رقعة واسعة من الأراضى الزراعية شديدة الخصوبة يغذيها نهرا «حدرة»

و « شنيل » ـ اللذان تغنى بهما شعراء العرب ثم شعراء الأسبان من بعدهم ومنهم لوركا بالذات ـ واللذان يستمدان مياههما من ثلوج أعلى جبال المنطقة : « سييرا نيفادا » ، التى سماها العرب جبال شلير ، وبجوارها جبال البشرات • وتعد تلك الرقعة الزراعية الغرناطية من أخصب المناطق فى البلاد وأكفها زراعة ، وقد قال عنها الرحالة العرب الأولون : انها تفوق غوطة دمشق مســاحة وخصبا ••

وقد فتح العرب غرناطة فى مطلع غزوتهم الاسبانية ، عام ٧١٢ م ، واتخذوا من موقعها حصنا مكينا نظرا لما تتمتع به من موقع استراتيجى هام وسط سلاسل جبال منيعة ، وعربوا الاسم الرومانى لها وهو Granada ـ أى الرمانة ، الذى أطلق عليها لأنها كانت على شكل يعطى للناظر من بعيد هيئة تلك الثمرة ـ وجعلوه غرناطة • وقد سيطر العرب على كل أجزاء شبه الجزيرة الأيبيرية ماعدا منطقتين : أشتورياس والباسك فى شمال البلاد • وكان فتح الأندلس فى عهد سليمان بن عبد الملك والوليد بن عبد الملك ، وحين قامت الدولة العباسية ، امتد حكم بنى أمية فى الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل وخلفائه ، الى حين سقوط قرطبة عام ١٠٣١ م • وقد حل محل الأمويين ملوك الطوائف وأشهرهم بنو عباد باشبيلية وبنو جهور بقرطبة وبنو عامر بشاطبة وبنو هود بسرقسطة وبنو حمود بمالقة • ثمجاء عصر دولة المرابطين ، فدولة الموحدين التى امتد عهدها حتى عام ١٢٦٩ • وأما غرناطة فكانت خلال الحكم الأموى تدخل فى اقليم « ألبيرة » ، وبعد سقوط قرطبة استقل بها حاكمها « زاوى بن زيرى » ، وظل يحكمها « بنو زيرى » حتى غلب عليهم المرابطون فالموحدون • وفى أواخر حكم الموحدين ، ظهر « بنو الأحمر » واستقلوا بغرناطة ، وأسسوا فيها عام ١٢٣٨ « مملكة غرناطة » التى قامت لأكثر من قرنين ونصف من الزمان ، وشهدت سقوط المدن العربية الأخرى فى يد الاسبان ، الى أن أصبحت آخر مكان حكمه العرب فى اسبانيا •

وكانت مملكة غرناطة لا تضم مدينة غرناطة الحالية وحدها ، بل كان يدخل فيها مدن « ألمرية » و « مالقة » « وجبل طارق » «والجزيرة الخضراء » « ورندة » ، وأعمال هذه المدن وأرباضها ٠ وازدهرت هذه المملكة تحت حكم بنى الأحمر رغم الاضطرابات السياسية فيها وتربص الممالك الاسبانية بها وشيد الملوك فيها المساجد والقصور وزرعوا البساتين ، حتى أصبحت أيامها من أجمل مدن العالم ،وزارها وتغنى بها الرحالة العرب مثل « ابن بطوطة » « وابن جبير » ٠ وبلغت المملكة شأوها فى عهد الملك محمد الغنى بالله » (محمد الخامس) حين سطع فى سمائها عدد من الأدباء والشعراء ، على رأسهم الوزير لسان الدين بن الخطيب مؤلف المرجع الأساسى عن المدينة وعنوانه « الاحاطة فى أخبار غرناطة » وشاعر الأندلس « محمد بن زمرك » صاحب الموشحات الأندلسية ٠

وتتالى على عرش المملكة بعد ذلك ملوك تراوحوا بين ضعيف وقوى ، الى أن سقطت المملكة فى يد الملكين الكاثوليكيين « ايزابيلا وفرديناند » فى ٢ يناير ١٤٩٢ ، ورحل آخر ملوكها وهو محمد أبو عبد الله ، مع كبار الأشراف العرب ، الى المنفى فى بلاد المغرب العربى ٠

ورغم مرور مئات السنين على انتهاء الحكم العربى فى غرناطة ، لاتزال المدينة وأرباضها ـ شأنها شأن مدن الأندلس الأخرى ذات التاريخ الاسلامى العريق كقرطبة واشبيلية ـ تزهو بالآثار العربية الاسلامية وتنبىء تحت قشرة الأسماء الاسبانية عن أسماء عربية أو ذات أصل عربى ٠ وأعظم الآثار القائمة بها حاليا وهو قصر الحمراء (AlHambra الآن بالاسبانية) وحدائقه المسماه جنة العريف (Generalife) ، تشكل مع جامع قرطبة ومنارة الخريدة باشبيلية أعظم الآثار العربية الباقية فى اسبانيا اليوم ٠

المناخ السياسى والثقافى ونشأة الشاعر

كان مولد شاعرنا فى أواخر القرن التاسع عشر ، فى يوم ٥ من يونيو ١٨٩٨ · وكان ذلك العام معلما من المعالم الأساسية فى تاريخ أسبانيا ، عسكريا وسياسيا وفكريا ، ففيه ضرب خط فاصل بين ما تبقى من آثار العظمة الامبراطورية التى كانت لأسبانيا وبين صحوتها على الواقع الأليم المرير بزوال آخر مستعمراتها الكبرى فيما وراء البحار · ففى مطلع ذلك العام ، تدهورت العلاقات بين أسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، بعد أن ثار الكوبيون على الاحتلال الاسبانى لبلادهم ، ومدت الولايات المتحدة يد المساعدة المعنوية للثوار ، وطالبت الصحف الأمريكية بالتدخل عسكريا فى كوبا لنصرتهم ، بيد أن الرئيس الأمريكى آنذاك ــ وليام ماكنلى ــ لم ير مبررا لذلك ·

ولكن حدث فى ١٥ من فبراير أن وقع انفجار بالسفينة الأمريكية « مين » الراسية فى ميناء « هافانا » ، أفضى الى مقتل ٢٦٠ أمريكيا واتهمت أسبانيا بتدبير ذلك الانفجار انتقاما للدعم الأمريكى للثوار الكوبيين ، فطلب الرئيس الأمريكى الاذن من الكونجرس بالتدخل ضد أسبانيا ، فوافق الكونجرس مبينا أنه ليس لأمريكا من هدف وراء ذلك سوى تحقيق الاستقلال الكوبى ·

وأعلنت اسبانيا الحرب على الولايات المتحدة فى ٢٤ من ابريل تلاه اعلان الولايات المتحدة الحرب على اسبانيا فى ٢٥ من ابريل · وكان للولايات المتحدة اليد الطولى فى الحرب بسبب أسطولها البحرى المتفوق · ففى ١ من مايو ، دمر الأميرال الأمريكى « جورج

ديوى » الأسطول الاسبانى فى مانيلا بالفلبين ، مما أسفر عن مصرع ٣٨١ اسبانيا ، بينما كانت خسائر الأمريكيين ٨ جرحى فحسب ٠ وعلى نحو مماثل ، تم تدمير الأسطول الاسبانى فى كوبا فى ٣ من يوليو مع خسائر فادحة للاسبانيين ٠ ومع الهزيمة الساحقة التى نزلت باسبانيا فى هذه الحرب القصيرة الآن ، تم فى ديسمبر ١٨٩٨ توقيع معاهدة باريس بين اسبانيا والولايات المتحدة ، التى وافقت اسبانيا بمقتضاها على التخلى عن كوبا ، وعلى أن تتنازل للولايات المتحدة عن بورتوريكو وجوام والفلبين ٠

وقد أحدثت هذه الهزيمة المبينة رد فعل عنيفا فى أوساط الاسبانيين بكل طوائفهم ٠ وكان رد الفعل لدى المفكرين والأدباء صيحة احتجاج قوية ضد الوضع الاسبانى السائد فى تلك الفترة ، وضد المناخ السياسى والاجتماعى والفكرى الذى كان يرين على البلاد أيامها ٠ وتمخض هذا الاحتجاج لدى هؤلاء الأدباء والمفكرين عن حركة أدبية أطلق عليها فيما بعد حركة جيل عام ٩٨ ٠ وأبرز شخصيات هذه الحركة هم « أونامونو » و « أثورين » و « باروخا » و « مايتزو » و « أنطونيو متشادو » ٠ وأعمال هؤلاء الأدباء والمفكرين ، ومنهم الفيلسوف كاونامونو ، والروائى كباروخا ، والشاعر كمتشادو ، والأديب الجامع كاثورين ، تعتبر ثورة على الواقع الاسبانى فى أواخر القرن التاسع عشر ، واقترابا من التيارات الفكرية والثقافية التى سادت أوروبا آنذاك ، وخاصة فى فرنسا والمانيا ٠ وكانت الحركة الواقعية فى أوروبا ـ التى اقترنت بالاكتشافات العلمية والطبيعية الحديثة ـ قد أفسحت المجال لردة رومانسية ومثالية تمثلت فى الرومانسيين الجدد ٠

وهكذا كان الحال مع أدباء جيل ٩٨ فى اسبانيا ، اذ انعكست فيهم روح من المثالية والرومانسية ازاء ما حل بوطنهم من نكسة كبيرة ، وامتزجت تلك الروح بعوامل رومانسية بارزة مثل الكآبة والنزعة الشخصية الحادة ٠ وجميعهم يبدون حبا دفينا لاسبانيا ، بيد أنه لا أحد منهم يقبل تقاليدها ، بل هم يبحثون عن صورة

لاسبانيا مختلفة عما ألفوه من قبل عنها ، ولذلك فان معظم أعمالهم تنصب على الروح الاسبانية والتاريخ الاســـبانى ، والطبيعة فى مقاطعات اسبانيا المختلفة · وحاولوا جميعا فى أعمالهم تحليل جميع عناصر الواقع الاسبانى وتقييمها ، وتصور روح اسبانية جديدة ، وواقع اسبانى جديد ،يبزغان من فوق أنقاض الماضى ليشيد حاضرا ومستقبلا آخرين لبلادهم · ومن ناحية الأسلوب الأدبى ، كان أفراد الجماعة يؤمنون بالعودة الى الأسلوب اللغوى البسيط المجرد من الزخارف اللفظية والمحسنات البديعية · وحاولوا جهدهم البعد عن واقعية القرن التاسع عشر التى تغرق فى الوصف المفصل للواقع الخارجى وتقدمه بصورته التى هو عليها ، وتمثلوا منهجا تعبيريا يقدمون به الانعكاسات الشعورية والانفعالية التى تثيرها الأشياء فى نفس الكاتب · وقد تأثر أفراد هذه الجماعة بعدد من أدباء ومفكرى أوروبا أبرزهم « آبسن » و « شوبنهاور » و « نيتشة » و « بسكال » و « كيركجارد » والروائيون الروس ·

نشأ لوركا فى ظل هذه الحركة الأدبية والفكرية ، وتأثر بها فى صباه تأثرا بالغا ، ذلك انه ما أن شب عن الطوق ، حتى كان نتاج أقطاب الحركة يصبغ الفكر والثقافة فى اسبانيا ويسيطر على أذهان المثقفين ·

وقد ولد شاعرنا كماقلنا فى نفس عام النكبة الاسبانية ، وكان أكبر أبناء أحد ملاك الأراضى فى مقاطعة الأندلس الجنوبية ، فوالده دون « فديريكو غرسيه رودريجز » ، كان مزارعا ناجحا له عدة ضياع فى غرناطة · وكان الوالد عريض الملامح ، خلعت الشمس على وجهه المستدير ويديه سمرة عربية صادقة · وكانت شخصيته مثالا للمواطن الريفى القح ، ذى الدخل المريح والسمعة الطيبة والمهارة فى فلاحة الأرض وادارة المزارع والضياع ولم يكن يعنيه الشعر فى قليل أو كثير · أما أم الشاعر فكانت ذات طبع مختلف ، فقد كانت دونيا « فيسنتا لوركا روميرو » هادئة متزنة ، صغيرة الحجم رقيقة الملامح ذات صـــوت طفولى ناعم وكانت تعمل قبل

زواجها مدرسة ومعلمة للموسيقى ، وقد تزوجها دون فديريكو بعد وفاة زوجته الأولى التى لم تنجب أطفالا · وقد قال لوركا عن والديه بعد ذلك فى مقابلة صحفية : « لقد ورثت حدة العاطفة عن والدى ، والذكاء عن والدتى » · وقد تشكل اسملوركا حسب التقليد الاسبانى العريق ـ من اسمه الأول الذى يماثل الاسم الأول لأبيه : فديريكو ، متبوعا بلقب عائلة الأب : غرسيه ، ثم لقب عائلة الأم : لوركا · وقد أنجب الزوجان ولدين هما « فديريكو » « وفرانسسكو » ، وبنتين هما « كونسيسيون » و « ايزابل » ·

وكان مسقط رأس الشاعر فى قرية « فوينتى فاكيروس » أى « نبع رعاة البقر » ، ومن أعمال غرناطة ، فى بيت مكون من دورين للأسرة ، مقام وسط مدينة صغيرة مسورة يمكن للاطفال اللعب فيها بأمان · وكانت القرية التى يقع فيهاالمنزل صغيرة ، تتكون من بيوت واطئة بيضاء تلتمع فوقها أشعة الشمس · وكانت المشاهد فيها لا تعدو المزارعين يتجهون الى حقولهم فى الصــــباح الباكر ، أو يعودون الى بيوتهم مع مغرب الشمس ، وعربات تجرها الثيران أو الخيول ، وقطعان ماشية أو أغنام تسير مهتزة وتثير من حولها سحائب من غبار ، وعددا من الدراجات القديمة يعود بها أصحابها من مصنع السكر خارج القرية الى بيوتهم ·

وقد حدث أن أصيب لوركا وهو وليد ذو شهرين من العمر بحمى غريبة مجهولة عرضت حياته للخطر · ولكنها انجابت عنه بخير ، ولم تخلف فيه الا مسحة من ضعف فى الساقين عند السير ، وجعلته يتأخر فى الـــكلام حتى سن الثالثة ، وفى الســـير حتى الرابعة ·

وكانت طفولة لوركا سعيدة مريحة ، تزخر باللعب والانطلاق مع أقرانه من صبية القرية وسط الحقول والدروب · وقد قال هو نفسه عن طفولته فيما بعد : « طفولتى هى تعلمى الحروف الأولى والموسيقى على يد أمى ، والاحساس بنفسى كابن أحد أغنياء القرية ·· كل طفولتى هى القرية ، والرعاة ، والحقول ، والســـماء ،

والوحدة ·· » وتميز لوركا منذ طفولته بالشغف بالتأمل والملاحظة ·· فحين كان يكف عن اللعب مع أترابه ، كان يمضى ســاعات وساعات فى تأمل الفراشات والهوام والنباتات والزهور ، ويحادثها كأنما هى أصدقاؤه · لقد شكل عالم الطبيعة له ـ بكل مافيه من تنوع واختلاف ـ عالما مدهشا منذ البداية ، شيئا أشبه بفردوس عامر بمخلوقات تتطلب منه انتباها دائما وملاحظة مستمرة ·

كذلك استبان للوركا فى طفولته عالم خيالى يزخر بالأحداث والقصص والشخصيات الخرافية ، نشأ من الحكايات والأســاطير الشعبية التى كانت تقصها عليه مربيته وأقاربه وبعض صــديقات الأسرة من العجائز · وقد استمد من هذا العالم مادة غزيرة انكب عليها عقله الصبيانى يفحصها ويمحصها ، حتى تركت فى نفسه انطباعا لا يمحى ظهر بعد ذلك فى جميع انتاجه الفنى والأدبى ، اذ أن شاعرنا قد احتفظ بكل تفاصيل هذه القصص من حكايات واقعية الى خرافات وأساطير · لتظهر بعد ذلك فى ثنايا قصائده ومسرحياته، بل وأحيانا فى رسومه · وكثيرا ماتبدو تلك الموضوعات على شكل صور تمثل نغمات غلابة تتردد فى كتاباته المختلفة ، الى جوار الموضوعات التى تشبع بها كيانه منذ الطفولة ، مثل حياة الغجر · ومسرح العرائس والاراجوز ، والحرس المدنى ، وحياة النساء فى الريف ، فضلا عن المشاهد الطبيعية الريفية ، وما يزخر به عالم الطبيعة من عوالم متنوعة من أزهار ونباتات وهوام وطيور وحيوانات وجداول وينابيع وأنهار وبحار ، وما الى ذلك ·

كان من بين ما استمع اليه الطفل ما قصــه عليه عمه يوما ما عن لصين من قطاع الطرق لجأ الى منزل عائلة العم فى احدى الليالى يطلبان ملاذا وطعاما · وعطفت العائلة عليهما فآوتهما فى ركن من مخزن الغلال بعد أن زودتهما بالطعام والشراب · وفى منتصف الليل ، استيقظ الجميع على دقات متتالية على الأبواب ، معلنة وصول قوات الحرس المدنى ، أى رجال الدرك والشــرطة الاسبان · وظهر الحراس بقبعاتهم المثلثة الشهيرة ، وقبضوا على

لص من اللصين ، بعد أن تبين أن الثانى قد مات فى نومه من الجراح التى أصيب بها • وقال الحراس للعم : « وأنت أغلق فمك ولا تقل كلمة عما رأيت ! » •

وتساءل الصبى فى ذعر : وماذا حدث للرجل ؟

ـ لم نسمع سوى طلقة رصاص ، وصرخة فى الليل البهيم ، ثم طلقة رصاص أخرى ، ولا شىء بعد ذلك •

ـ؟لقد قتلوه اذن ، لقد قتلوه !

وقال الصبى هذه العبارة ، فاغر الفم وعيناه تلمعان من فرط الانفعال •

وقد أبدع الشاعر بعد ذلك فى تصوير جو الحرس المدنى الاسبانى فى عدة قصائد مشـــهورة ، معظمها فى ديوانه « حكايا الغجر ، ومنها قصيدة بعنوان حكاية الحرس المدنى يقول فيها :

الجياد سوداء
وســـــود حدواتها
وعلى العباءات
تلمع بقع من حبر وشمع
جماجمهم من رصاص
لهذا لا يبكون
ويخبون فى طريقهم
بأرواحهم الجلدية البراقة •
محنيو الظهور ، متسترون بالليل
وحيثما يحلون
يفرضون صمت المطاط الأسود

وخوف الرمال الناعمة
يمرون حينما يبغون المرور
ويخفون فى رءوسهم
فلكا غامضـــــا
من مسدسات لا هوية لها

ان ما فعله لوركا مرارا وتكرارا فى أعماله الفنية هو أنه تناول القصص والنوادر التى قصها عليه معارفه فى طفولته ليصيغ منها بعد ذلك حبكات مســــرحياته ، كما عمد أحيانا الى ادخال اللغة البديعية التى اعتاد سماعها فى القرى التى عاش فيها ، بين ثنايا لغته الشعرية ٠

وقد قال ذات مرة عن طفولته : « لقد عشت طفولتى فى جو كامل من الطبيعة ٠ وككل الأطفال ، كونت رأيى بشأن شخصية كل شىء ، كل موضوع ، كل قطعة أثاث ، كل شجرة ، كل حجر ٠ وكنت أبادل هذه الأشياء الحديث وأبادلها الحب ٠ كانت تنمو فى صحن دارنا أشجار الحور السوداء ٠ وفى أصيل أحد الأيام ، خطر لى أن أشجار الحور تشدو بالغناء ٠ ذلك أن الرياح وهى تمر بين أغصانها كانت تصدر مجموعات من الألحان بدت لى كالموسيقى ٠ وقضيت ساعات أصاحب بصوتى أغنية الأشجار ٠ ويوما آخر ، دهشت اذ سمعت شجرة حور سوداء عتيقة تهمس باسمى : ف ٠٠ دير ٠٠ يكو!

وفى حديث آخر مع أحد الصحفيين ، قال لوركا : « كان لذكرياتى الأولى عبير الأرض ٠ لقد فعل الريف بحياتى فعل السحر ان للأرض وللهوام وللحيوانات وللفلاحين أفكارا لا تصل الى الجميع أننى أسيطر عليها الآن بنفس الروح التى كنت أسيطر عليها بها فى طفولتى ٠٠ لقد كنت طفلا محبا للاستطلاع ، وكنت أتابع آنذاك عملية حرث أرض والدى فى أعماق الريف ٠ ولقد أحببت مشاهدة النصال الحديدية الهائلة تفتح جـــراحا فى الأرض ، جراحا تنبجس منها الجذور بدلا من الدماء ٠ ومرة اصطدم نصل المحراث بشىء أعاق

مسيره ، ثم اقتلع كسرة من قطعة خزف ورمانية عتيقة · وكان عليها سطور لا أذكرها وان بقى منها اسما الراعيين« دافنيس » و « كلو » فى ذهنى · وكان للاسمين أيضا نكهة الأرض التى أعشقها » ·

وقد عاش لوركا حتى الحادية عشرة من عمره تقريبا فى قلب الريف ، اذ أن أسرته انتقلت بعد مقام فى « فوينتى فاكيروس » الى قرية أخـــرى تدعى أسـكيروسا ـ التى كان العـــرب يســـمونها الشكروجة ، والتى تدعى الآن بلدى الربى Valde Rubio وهى فى نفس اقليم غرناطة أيضا حيث كان الأب يملك بعض الأرض ·· وهكذا انطبعت حياة الريف فى كيان الشاعر ، وانطبعت فى فؤاده مساحات الخضرة التى تحيط به من كل مكان · وجاءت القصيدة الخضراء ، حكاية السارية فى نومها ، تجميعا لكل هذه العوامل التى تأثر بها لوركا فى طفولته وصباه ، فهى مزيج من الصـــور الفنية المستمدة من الريف وأساطيره ، وحكايات اللصوص والمهربين ، فى خلق شعرى غنائى جميل :

أخضر ، أخضر ،

كم أحبك يا أخضر ·

رياح خضر ، وأفنان خضراء ·

السفينة فى البحر ،

والجواد فى الجبال ،

وهى تحلم فى شرفتها

والظلال تتراقص على خاصرتها

خضراء الجسد ، خضراء الشعر

وعيناها من فضة باردة

أخضـــر ، أخضـــر ،

كم أحبك يا أخضـــر ·

على نور قمر الفجر
كل شىء يراها
وهى لا ترى شيئا ٠



أخضــــر ، أخضــــر ،
كم أحبك ياأخضر ٠
أنجم هائلة
من الصقيع الأبيض
تأتى مع أسماك الظلام
لتشق طريقا للفجر ٠
وشجرة التين
تدلك هواءها برمال فروعها ٠
والجبل ،
كالقطة الســــارقة
ينصب صباراته الحارقة
ولكن ، من ذا القادم ؟
والى أين يقصد ؟
وتتمهل الفتاة فى شرفتها
خضراء الجسد ، خضراء الشعر
تحلم بالبحار المريرة



ـ « أى رفيقى ،
ألك أن تقايض جوادى بمنزلك ؟
ألك أن تبادل مسرجى بمرآتك ؟
ألك أن تبادل خنجرى ببساطك ؟
أى رفيقى ،
لقد أتيت مثخنا بالجراح
من عند بوابات « قبره »(*)
ـ « لو أمكنني أيها الشاب
لأتممت هذه الصفقة بيننا
ولكنى لم أعد أنا
كما لم يعد منزلى بعد منزلى »
ـ « أى رفيقى ،
أريد أن أموت بسلام فى فراشى
على سرير حديدى ان أمكن ذلك
وملاءات من الحرير الهولندى ٠
الا ترى جراحى
تمتد من صدرى الى عنقى ؟ »
ـ « ثلاثمائة زهرة داكنة
يحملها صدر قميصك
دماؤك حارة

(★) بلدة من أعمال مدينة قرطبة بالأندلس ٠

تصطخب من حول ضماداتك
ولكنى لم اعد انا
كما لم يعد منزلى يعد منزلى »
ـ « دعنى على الأقل
أصعد الى الشرفات العليا
دعنى أصعد ! دعنى !
الى الشـــرفات الخضـــراء
شـــرفات القمر
حيث تنهل المياه »



ويصعد الرفيقان الى الشرفات العليا
ووراءهما خيط من الدماء
وراءهما خيط من الدموع ٠
ومصابيح صفيحية صغيرة
ترجف على الاسطح
وآلاف من المزامير
تثخن الفجر بالجراح ٠



اخضـــر ، اخضـــر ،
كم أحبك يا اخضـــر ٠
رياح خضر ، وأفنان خضراء

ويصعد الرفيقان ...
والرياح المتطاولة ،
تترك مذاقا غريبا فى الشفاه ،
مذاق مر ونعناع وريحان .
ـ « أى رفيقى ، أين هى ؟
اين تلك الفتاة المريرة ؟ ،
ـ « آه ... كم مرات انتظرتك !
وكم ستنتظر مرات ومرات !
فى تلك الشرفة الخضراء
مشرقة الوجه ،
سوداء الشعر »



وتراقصت الفتاة الغجرية
على سطح خزان المياه
خضراء الجسد ، خضراء الشعر
وعيناها من فضة باردة
وثؤلول من القمر
يحملها على صفحة المياه
وانسدل الليل أليفا
كالساحة الصغيرة
ورجال الدرك سكارى

يدقون على الأبواب ...

أخضـــر ، أخضـــر ،

كم أحبك يا أخضر .

رياح خضر ، وأفنان خضراء .

السفينة فى البحر

والجواد فى الجبال .

والى جانب هذا التعليم الفطرى الذى ناله الشاعر من الطبيعة حوله ومن حياة الحقول ونسيج الأساطير والحكايات الشعبية ، بدأ حصيلته فى فترة مبكرة . فقد اهتمت والدته ـ وهى المدرسة أصلا ـ بتلقينه مبادىء اللغة والعلوم بنفســـها ، وأشـــربته حب الموسيقى ومبادئها منذ نعومة أظفاره . ثم انتظم فى مدرسة القرية ـ التى كان يشرف عليها ويدرس فيها الأستاذ « أنطونيو اسبينوزا »، وهو صديق حميم لأسرة لوركا ، الذى سرعان ما فطن الى المواهب الباكرة التى يتمتع بها ذلك الصبى ، فتوفر على تطوير النزعات الفنية فيه . وقد بادله الصبى ودا بود ، وصل الى أنه حين نقل الأستاذ عام ١٩٠٨ الى مدينة « المرية » الساحلية ، قررت الأسرة أن ترسل ابنها بصحبته ،تلميذا فى مدرسته ومقيما فى منزله ، حتى يستمر فى تلقى التعليم الذى بدأه على يديه .

ولكن اقامة لوركا فى «المرية» لم تكن موفقة ، اذ سرعان ما غلبه الحنين الى أسرته وبلدته ، وافتقد الجو الحانى الذى كان يحيطه به أبواه ، وأخيرا سقط فريســـة المرض ، وتورم وجهه من جراء الميكروب الغامض الذى هاجمه ، حتى اضطر الأب الى أن يعيده الى البيت ولم يرسل به بعيدا عن الأسرة بعد ذلك . وكانت حصيلة هذه التجربة المريرة ، أولى محاولات لوركا الأدبية ، اذ انه كتب خلال فترة مرضه قصيدة هزلية قصيرة ، شبه نفسه فيها بوجهه المنتفخ بسلطان مراكش آنذاك ، وهى تمثل جانبا آخر من جوانب خياله الممتلىء بالصور العربية .

وقد بدأ فى تلك الفترة ـ عام ١٩٠٨ ومابعده ـ شغف لوركا بالقراءة والمطالعة · وكان من بين ما تأثر به كتاب « دون كيخوتة » درة الأدب الاسبانى ، وبعض مترجمات من أعمال « فكتور هيجو » كانت فى مكتبة جده لأبيه · وتجمعت مادة قراءاته هذه مع مادة الشعر الشفوى والرومانسيات والأغانى الشعبية التى كان يسمعها من أفواه الفلاحين أو فى السهرات العائلية ، حتى أنه صار وهو فى العاشرة من عمره طفلا ذا خيال ثرى ، تضطرم فيه الصور والأساطير والروايات ، ويبين اضطرابها عينيه الداكنتين فتنبئان عن روح وثابة تواقة للتعبير عن نفسها فى أشكال مختلفة من الفن والحياة ·

وفى المنزل ، كان لوركا ينفث عاطفته الفنيـــة المبكرة على شكل أعمال تمثيلية يعرضهاأمام جمهوره الأول ، وهو يتكون من أخيه وأختيه ووالدته ، ومن يعمل فى المنزل من خدم · وقد تأثر تأثرا عظيما بعروض مسرح العرائس الريفى المتنقل الذى كان يمر بين آونة وأخرى بقريته · وكان يحاول أحيانا تقليد عرض التمثيليات التى يشاهدها فيه وينقلها عبر خياله الى نظارته · وقد ظهر هذا الميل فيما بعد فى عدد من عروض مسرح العرائس توفر الشاعر على كتابتها واخراجها ، منها « عرائس كاتشى بورا » ومسرحية عرائس « دون كريستوبال » وغيرهما ، مما يمثل من حصيلة أعماله ذلك الجانب الطفولى من شخصيته الذى امتزج بموهبة الفنان فأنتج أعمالا خلاقة فى ذلك الميدان ·

حيـاة المدينـة

بعد أن فشلت تجربة ارسال لوركا الى « القرية » لاستكمال دراسته مع أستاذه ومعلمه الأثير ، كان على الأسرة أن تتخذ قرارا بالانتقال الى عاصمة الاقليم ـ مدينة غرناطة ـ وذلك حتى يتوفر للصبى ولأخيه وأختيه التعليم المناسب فى المدارس المناسبة . وقد انطوى ذلك الانتقال على تغييرات عديدة فى نمط حياة الأسـرة وطريقة حياة أفرادها . وكانت الرحلة مثيرة للوركا الصبى ، ولكنه سرعان ما بدأ يفتقد مسـارح طفولته وأصدقاءه وأماكن تجواله ولهوه فى القرية . ووجد لوركا المدينة جد مختلفة عن القرى التى شهدت طفولته ، فالأفق لم يعد منبسطا أمام ناظريه ، وافتقد هدوء الريف وتوهج الشمس فيه . ولم يعد المنزل الذى يقيم فيه يتسـم بالرحابة والألفة التى كان الصبى يجدهما فى الكرمة التى كانوا يقيمون فيها بالقرى ، حيث صحن الدار بنافورته التقليدية ، والبستان الذى يحيط بالدار ويمتلىء بالزهور من ورود وياسمين ورياحين ، ويزخر بالفراشات والجداجد والهوام والقواقع ، وهى المادة التى ...ثرت بعد ذلك فى معظم قصائد لوركا وتمثيلياته .

واصطبغ شـعوره فى المدينة بحنينه الى طفولته القروية ، فأنتج مثل هذه القصيدة التى كانت من أوائل ما كتب من شعر :

يخرج الأطفال فرحين
من المدرسـة
مرسلين فى هواء ابريل الدافىء
اغانى حنونة .

أى بهجة
يخلعها الصمت العميق
على الزقاق الصغير !
صمت يتحطم شظايا
بضحكات الفضة الجديدة ٠



ها أنا أمضى في درب الأصيل
وسط زهور البستان
تاركا ورائى
مياه أحزانى
وفى التل المنعزل
ترقد مقبرة الضيعة
كأنها حقل تغرسه الجماجم
بينما أزهرت أشجار السرو
كأنها رؤوس ضخام
تتأمل الأفق
بمحاجر فارغة
وشعور مخضوضرة
يكللوا الفكر والحزن



آه يا ابريل الالهى
يامن تأتى حاملا الشمس والشذى
فتملأ الجماجم المزهرة
بأعشاش ذهبية !

وكان مما خفف على الأسرة هذا الحنين الجارف الى الريف ، أن الأب قد احتفظ بضـــياعه القروية ، حيث كانت الأسرة تذهب لتمضية العطلات • كذلك ابتاع الأب بعد ذلك كرمة فخمة فى ضواحى غرناطة سميت « بستان سان فسنت » حيث كانوا يمضون الصيف دائما ، وكان لوركا يحرص على اللحاق بأســـرته هناك لزيارتهم وتمضية بعض الوقت معهم وقد ارتبطت تلك الكرمة بآخر أيام الشاعر حين ذهب فى زيارة الأسرة هناك حين وقع الانقلاب العسكرى فى صيف عام ١٩٣٦ وأدى فى النهاية الى مصرعه •

وفى غرناطة ، ألحق لوركا بمدرسة اعدادية اسمها « القلب المقدس » ، كيما تعده للحصول على الشهادة الحيوية بالنسبة لكل ''اب ــ وهى الثانوية العامة التى تسمى بالأسبانية «الباتشييراتو» ــ يتى تؤهله للالتحاق بالجامعة • وكان جو الدراسة فى هذه المدرسة ــ رغم أنها لم تكن مدرسة دينية بالمعنى المفهوم ــ جوا خانقا • وكان المدرسون من النوع المتزمت العتيق • وقد خلد لوركا أحد مدرسيه فى تلك المدرسة ، فى مسرحيته « الآنسة روزيتا العانس » ، حيث نرى الأستاذ « مارتين » يبث شجونه عن حياته كمدرس والصعوبات اليومية التى يلاقيها من تلاميذه فيقول :

« لقد عدت توا من القاء درس عن المنظور • لقد كان جهنما حقيقية • لقد كان درسا عظيما : « مفهوم وتعريف الاتساق » • ولـــكن لم يكن يهم الأولاد فى شىء •• ويالهم من أولاد ! انهم يحترموننى شيئا ما لأنهم يرون أنه لا نفع فى ، فمرة أجد دبوسا على المقعد ، أو عروسا صغيرة على ظهرى • ولكنهم يقترفون أشياء أفظع مع رفقائى المدرسين • انهم أبناء الأثرياء ، ولا يمكن عقابهم لأنهم يدفعون • وهذا مايقوله لنا المدير دائما • وأمس زعموا أن الأستاذ «كانيتو» المسكين، وهو معلم الجغرافيا الجديد، يرتدى مشدا للخصر ، ذلك لأن جسده منحن قليلا • وحين كان يقف وحده فى الفناء تمالأ عليه الكبار وتلاميذ الداخلية ونزعوا الثياب عن وسطه

الأعلى ، وربطوه فى أحد أعمدة البهو وألقوا عليه دلوا من الماء من الشرفة ..

.. **اننى أدخل المدرسة كل يوم وأنا أرتجف منتظرا ما سوف يفعلونه معى رغم أنهم يحترمون بعض الشىء ما أنا فيه من البلاء .. أن الآباء يضحكون بعد ذلك من الفظائع التى يقترفها أولادهم لأننا من المدرسين غير المثبتين ولا نقوم بامتحان أولادهم . انهم يعتبروننا رجالا خالين من العواطف ، كأننا أشخاص نقف فى آخر درجة من السلم ولانزال نرتدى ربطة العنق والياقة المنشاه »(١) .**

وبعد مدرسة « القلب المقدس » ، يلتحق شاعرنا بمعهد الدراسة الثانوية فى غرناطة ، ويمضى فيه فترة دراسته الثانوية حتى يتخرج منه بصعوبة حاصلا على الثانوية العامة فى ٢٠ من مايو ١٩١٥ . ونقول انه حصل عليها بصعوبة لأن الدراسة لمتكن تستهويه قدر ما يستهويه تكريس حياته للفن والموسيقى والأدب ومعايشة أهلها ، وهى السمة التى ستظل لاصقة به أيضا خلال تعليمه الجامعى .

ونعود الى تلك الحقبة من حياته أولى اهتماماته الفنية فى حقلى الشعر والموسيقى ، اذ يرجع اليها وضعه لأولى قصائده ، وعنوانها « فجر » ، التى نشرها بعد ذلك فى أول دواوينه الشعرية :

فؤادى المدلحون

يشعر عند اطلالة الفجر

بأحـــــــزان حيه

وأحلام الأرض القصية .

ونورالفجـــر

---

(١) « الآنسة روزيتا العانس » ـ العدد ١٦٥ من سلسلة من المسرح العالمى ، وزارة الاعلام بالكويت ، يونيو ١٩٨٣ .

يحمل مئات الحنين
والحزن الأعمى
للباب الروح
ويرفع قبر الليل العريض
نقابه الأســـود
ليخفى بالنهار
الذرى الشـــاسعة
المرصعة بالنجوم



ماذا سأفعل أنا فى هذه الحقول ؟
التقط الأعشاش والأغصان
ملتحفا بالفجر
بينما يملأ الليل روحى !
ماذا سأفعل أنا ؟
وعيناك قد صرعتهما الأنوار الباهرة
وبدنى يجب ألا يشعر
بحرارة نظراتك ٠



لماذا فقدتك والى الأبد
فى ذلك الأصيل الصافى ؟
فاليوم قد جف صدرى
كأنما هو نجمة منطفئة ٠

كما يبدأ لوركا أيضا فى هذه الفترة دراسة الموسيقى دراسة منهجية على يد أستاذ عظيم ترك فيه أكبر تأثير ، وهو الموسيقار « أنطونيو سيجورا » ، أحد تلاميذ الايطالى العظيم « فردى » • وقد وصل شغفه بالموسيقى وحبه لدراستها الى حد أنه قد خطط جديا ــ بعد وفاة أستاذه ذاك ــ للسفر الى باريس لاستكمال دراسته للموسيقى هناك ، ولم يثنه عن ذلك الا اصرار والده على أن يكمل دراسته فى الحقوق أولا •

وبعد حصـــول الشاعر على الثانوية العامة ، التحق بكلية الحقوق جامعة غرناطة • وقد جاء اختيار تلك الكلية بعد طول نقاش بين لوركا ووالده ، تحول بعد ذلك الى مشكلة عويصة ، فقد كان الابن راغبا فى دراسة الأدب ، بينما الأب يتطلع الى رؤية ابنه يشغل وظيفة محترمة تكفل له وضعا مريحا فى المجتمع ، كوظائف المحامين والقضاة • ووجد لوركا الحل السعيد لتلك القضية ، فقد أذعن لرغبة والده فى دراسة الحقوق ، الا أنه عمد الى ارضـــاء نزعاته الأدبية ، فالتحق أيضا وفى نفس الوقت بكلية الآداب فى نفس الجامعة !

ولكن هيهات لتلك الروح الثائرة الوثابة أن ترضى بالقوالب الجامدة التى تفرضها الدراسة النظامية ــ سواء كانت لحقوق أو للآداب ، ذلك أن ميوله الفطرية كانت فى جانب ، والدراسات المنهجية فى الجانب الآخـــر • لذلك نراه لا يلقى بالا لمتابعة المحاضـــرات ولا للاستعداد للامتحانات ، بل هو موجود دائما حيث يوجد الفن والأدب ، مشاركا فى الجماعات الأدبية ، وحاضرا فى نوادى الفن والثقافة ، حيث يطلق العنان لروحه لتتلاقى مع أرواح رفاقه من الفنانين والأدباء ، وتسمعهم خطراتها على شكل أغانى شـــعبية ومعزوفات موسيقية خلاقة • وجدير بالذكر أنه لم يتخرج ، فى نهاية الأمر ، الا فى كلية الحقوق فى عام ١٩٢٣ ، معضدا بوساطات أصدقائه وزملائه لدى الأساتذة للتغاضى عن نسبة الحضور اللازمة لدخول الامتحانات • أما كلية الآداب ، فان مترجمى حياته ــ وعلى

رأسهم صديقه الحميم « خوسيه لويس كانو » - يؤكدون أنه لم يتخرج فيها أبدا • وغني عن القول أيضا انه لم يعمل بليسانس الحقوق الذى حصل عليه فى أى وقت من أوقات حياته •

ترك لوركا اذن محاضراته ، وانطلق يهيم فى عالم الفن والأدب على حـــريته • وكانت الأماكن التى تســـتأثر بوقته عـــديدة : « الساكرامنتو » حى الغجر فى غرناطة ، حيث كان يحب أن يندمج مع هذه الفئة التى تعيش حياتها على طبيعتها ، يسمع منهم كما اعتاد أن يسمع من قبل فى الريف - غناءهم وحكاياتهم وقصصهم • وكان بعضهم يسكن أيضا فى حى الفقراء ، من العمال والفلاحين ، وهو حى « البيازين » الذى احتفظ بنفس اسمه العربى منذ أيام بنى الأحمر ، والذى لايزال الزائر الى اليوم يجد لافتات صغيرة بالعربية تقول : « الحى العربى يرحب بكم » •

وكان الشاعر يتردد كثيرا على مركزين رئيسيين من مراكز الفن والثقافة فى غرناطة ، احدهما رسمى تقليدى ، والآخر تجديدى طليعى • فأما المركز الرسمى فهو « المركز الفنى Centro Artistico وكان لوركا يجد فيه الكتب التى يريد الاطلاع عليها - خارج المناهج الدراسية الجامعية - ويسمع فيه المحاضرات ويحضـــر الحفلات الموسيقية • وفى هذا المركز ، أعطى لوركا أول عروضه الموسيقية ، حيث عزف مقطوعات كلاسيكية نالت استحسان الحاضرين • ولكنه كان ينطلق على سجيته مع المجددين الطليعيين ، الذين تركزوا فى ندوة فنية كانوا يجتمعون فيها فى ركن من أركان مقهى شهير يدعى « ألاميدا » ، وتسمت الندوة من جراء ذلك باسم « الركن الصغير » «Rinconcillo» وفى هذه الندوة - التى تمثل النزعة الثائرة على التقليد فى الفن - كان يلتقى صفوة من جادت به غرناطة من شباب الشعراء والقصاصين والرسامين والموسيقيين • وكان أفراد الندوة يتناقشون فى كل وجه من أوجه الثقافة والفن ، من المسرح الاسبانى فى عصره الذهبى ، الى موسيقى « ديبوسى » « ورافيل » الفرنسيين • وكانوا يستمعون الى انتاج بعضهم البعض ويتناولونه بالنقد والتحليل• وكان لوركا يلقى علىأفراد الندوة حكاياته ونوادره

وشعره ، ويعزف لهم المقطوعات الشعبية ويغنى الأغانى الفولكلورية .. وفى هذه الندوة ألقى لوركا أوائل قصائده التى بدأ فى تدبيجها عام ١٩١٨ وما بعده ، وقوبلت بحماسة شديدة من أفرادها ، مما جعل « مورا جارنيدو » أحد أعضاء الندوة - يؤكد بعد ذلك بأن تلك الحماسة هى التى أغرت لوركا بالتركيز على كتابة الشعر منذ تلك الفترة .

وكان كبار الأدباء والفنانين - الاسبان والأجانب - يزورون تلك الندوة الثقافية فى ركنها الصغير للمشاركة والتعرف وابداء الرأى ، أو لحضور مناقشاتها بوصفها واحة من المعالم الثقافية لمدينة غرناطة . وهكذا زار الندوة الكاتبان البريطانيان الشهيران هـ . ج . ويلز و « رديارد كبلنج » عند مرورهما بغرناطة فى رحلتهما الاسبانية . كذلك كان الموسيقار الاسبانى المعروف مانويل دى فايا - الذى يعرب البعض لقبه الى « ضيف الله » - يحضر جلسات الندوة فى كثير من الأحيان بعد انتقاله الى غرناطة واتخاذه كرمة له هناك بالقرب من قصر الحمراء . وقد تعارف الى لوركا ونشأت بين الفنانين الأندلسيين صداقة وثيقة العرى سنعود الى الحديث عنها بين حين وآخر فى هذا الكتاب .

وتركزت قراءات لوركا فى تلك الفترة - بعامل تأثير أصدقائه أعضاء الندوة وزملائه فى جامعة غرناطة - فى عيون الأدب الاسبانى .. وهكذا التهم أعمال « لوى دى فيجا » و « كالديرون دى لا باركا » و « جونجرا » و « خوان ثوريلا » فضلا عن دواوين « روبين داريو » شاعر نيكاراجوا الذى رفع راية الحداثة فى الشعر الاسبانى . وقرأ كذلك أعمال الرومانسيين ، خاصة « جوستافو أدلفو بيكر » شاعر اشبيلية ، وتعرف على حركتى الرمزيين والبرناسيين اللتين كانتا فى عنفوانها آنذاك فى فرنسا . وكم كان للوركا من تجوالات طوال فى دروب غرناطة التى عشقها وعلى مشارف قصر الحمراء ورياض جنة العريف ، وحده أو مع زملاء له ، يقرأون كتب الشعر والأدب هذه ويعلقون عليها بآرائهم ونقدهم .

وتعرف لوركا ابان الطلب الجامعى فى غرناطة على أستاذين لعبا دورا هاما فى تكوينه الثقافى والعملى ، أولهما وأبعدهما تأثيرا هو « فرناندو دى لوس ريوس » أستاذ القانون السياسى بكلية الحقوق ـ الذى تبناه فكريا وتابع مد يد العون له فى جميع مراحل حياته ، خاصة عندما عين الأستاذ بعد اعلان الجمهورية فى اسبانيا عام ١١٣١ وزيرا للتعليم • والأستاذ الثانى هو « مارتين برويتا » الذى كان له الأثر المباشر فى وضع لوركا لأول كتبه المنشورة • وكان الأستاذ « برويتا » يعمل أستاذا لنظرية الأدب بكلية الآداب ، وعمل بدروسه ومحاضراته على اثارة القلق الفنى والأدبى فى صدور تلاميذه ومنهم لوركا ، ذلك القلق اللازم للابداع الفنى • وقد نظم الأستاذ « برويتا » رحلات هامة لطلبته لزيارة المعالم الفنية والأثرية والتاريخية فى أسبانيا ، اشترك لوركا فى رحلتين منها كانت نتيجتها أول كتبه • كانت الرحلة الأولى فى يونيو ١٩١٦ لزيارة اقليم الأندلس كله بمدنه العظيمة • والتقى لوركا أثناء مرورهم ببلدة « بياسة » Baeza بالشاعر العظيم « أنطونيو متشادو » أحد عمد جيل ٩٨ الذى سبق ذكرها ، وكان يعمل أيامها بالتدريس هناك • والرحلة الثانية كانت فى أكتوبر من نفس العام ، وزار فيها مقاطعة قشتالة وشمال شرق اسبانيا ، وكان من بين من قابله لوركا ابانها فيلسوف اسبانيا المشهور « أونامونو » وهو أيضا علم من أعلام جيل ٩٨ •

وقد عمد لوركا فى أثناء الرحلتين الى تدوين خواطره وتأملاته عن الأماكن التى يزورها • وعاد الى تلك الأوراق بعد ذلك يعمل فيها تنقيحا وترتيبا واضافة ، حتى تجمع له فى النهاية عدة مقالات وصفية • وقد خطر له خاطر ألح عليه حتى أصبح احتمالا محققا ، وذلك هو نشر هذه المقالات فى كتاب يحمل اسمه • ولم يكن أمامه ـ وهو غير المعروف بعد فى عالم الكتابة ـ الا أن ينشر الكتاب على نفقته • وحسين فاتح والده فى ذلك ، تردد الأب ، ثم بحث الموضوع مع الثقاة من معارفه من أساتذة الجامعة والصحفيين ، فأجمعوا كلهم على أن الكتاب يستحق النشر • وهكذا دفع « دون

رودريجث » ثلاث آلاف بيزيته تكاليف الطبع ، وقال فى هذه المناسبة :
« ان ذلك أفضل مما لو كان قد طلب منى سيارة ! »

وصـــدر كتاب لوركا تحت عنوان « انطباعات وصـــور » «Impresiones y Paisajes» ، فأحدث ضجة لا لدى الجمهور ، ولكن لدى أعضاء ندوة « الركن الصغير » الذين رأوا فى كتاب يصدره أحد زملائهم مدعاة فخر للجماعة كلها ٠ وقد أهدى المؤلف كتابه لأستاذه الموسيقى الراحل « أنطونيو سيجورا » ، فكان رمزاً مزدوجا يعبر عن اخلاصه وحبه لأستاذه ، وكذلك حبه وشـــغفه بالموسيقى ٠

ومقالات الكتاب كتبت بروح بلاغية رومانســـية ، يبدو فيها واضحا تأثير امام الرومانسيين الاسبان « بيكر » فى قطعه النثرية ، وقد سطرت بروح شاعرية وحس غنائى دفاق يعبر عن حب الشاعر لمواطن الجمال فى وطنه ٠ ولكن الكتاب لم يلق رواجا ، الا أنه كان دافعا مشـــجعا للشـــاعر المبتدىء أن يرى انتاجه الأول مطبوعا ومنشورا ٠ ورغم أن لوركا كان يشير اليه بعد ذلك فى رنة اعتذار عن روح البلاغة الطلابية التى تشيع فيه ، الا أن أجزاء منه كانت ترد دائما فى طبعة الأعمال الكاملة للشاعر ٠

وبعد فترة وجيزة من صدور هذا الكتاب ، ثبتت أقدام الشاعر فى عالم النشر ٠ ذلك أن مجلة « الرواية القصيرة » التى تصدر فى مدريد ، أخرجت عددا خاصا عن الشعر الاسبانى الحديث ، كان من بينها قصيدة للوركا بعنوان « موال الساحة الصغيرة » ٠ ورغم أنها لم تكن أول قصيدة يكتبها لوركا ، فهى أول قصيدة تنشر له ، وكان نشرها بعد نشر كتابه الأول ، عاملا هاما أقنعه بأن حياته ليس لها الا طريق واحد ، طريق الفن والأدب ٠ وتندرج تلك القصيدة المبكرة فى فئة حنينه الى مسارح طفولته وذكريات حياته فى الريف :

الأطفال يأتون
فى الليل الهادىء
ياللغدير الصافى
والنبع الرقراق

الأطفال

لماذا يخبىء فؤادك الالهى البهيج ؟

أنا

دقات أجراس
تائهة بين طيات الضباب

الأطفال

ها أنت تدعا نغنى فى الساحة الصغيرة
ياللغدير الصافى
والنبع الرقراق
ماذا تمسك فى يديك الربيعيتين ؟

أنا

زهرة بلون الدماء
وســـــوسنة

الأطفال

أغمرهما فى مياه الأغنية العطرة
ياللغدير الصافى
والنبع الرقراق
ماذا يخبىء فمك من مشاعر
حمراء عطشا ؟

انا

مذاق عظام راسى الكبير

الأطفال

فلننهل من الماء الهادىء للأغنية العطرة
ياللغدير الصافى
والنبع الرقراق
لماذا تذهب هكذا ·
بعيدا عن الساحة الصغيرة ؟

انا

انىذاهب بحثا عن السحرة
وعن الأميرات

الأطفال

ومن دلك على درب الشعراء ؟

انا

نبع الأغنية العطرة
وغديرها الرقراق

الأطفال

اذاهب أنت بعيدا بعيدا
فيما وراء البحار والأرض ؟

انا

لقد امتلأ فؤادى الحريرى
بالاضـــــواء ،
بالأجراس التائهة ،

بالزنابق والنحلات
ولســـوف أبغى بعيدا جدا
فيما وراء الهضـــاب والجبال
فيما وراء البحار والأنهار
بالقرب من النجوم
كيما أطلب من يسوع المسيح
أن يرد لى
روح طفولتى الأولى
وقد أنضجتها الأساطير
بما فيها قبعات الريش
والســـيف الخشـــبى

الأطفال

ها أنت تدعنا نغنى فى الساحة الصغيرة
ياللغدير الصافى
والنبع الرقراق
وهاهى العيون اليواقظ
للأكمات الذابلات
تبكى أوراقها الميتة
وقد أثخنتها الرياح بالجراح

الى العاصمة مدريد

ومع اقتحام شاعرنا لمجال النشــــر وبداية ذيوع اسمه فى المحافل الأدبية والفنية ، بدأ يشعر بأن جو « غرناطة » يضيق عن آماله وطموحاته · انه الآن بحاجة الى أجواء جديدة وآفاق أوسع يمارس تحت ظلالها تحقيق أحلامه العريضة · ومن ناحية أخرى ، كان كثير من رفاقه فى مقهى « الاميدا » قد نزحوا الى مدريد للدراسة فى جامعاتها · وعندما وجد أنه لا مناص له من الانتقال بدوره الى العاصمة · وكان ممن رحب بفكرته تلك أستاذه « فرناندو دى لوس ريوس » الذى أشار على أسرة لوركا بضرورة اتاحة الفرصة أمامه لتنمية مواهبه فى بيئة أكثر اتساعا واستعدادا · واستطاع الأستاذ أن يحصل على موافقة الأبوين على تحويل لوركا للدراسة فى كلية الآداب بجامعة مدريد المركزية ، مع استمرار قيده فى كلية الحقوق بجامعة غرناطة · وكان الرحيل صعبا على الأبوين ، ولاسيما الأم التى تألمت أشد الألم من فراق ابنها الأكبر · وكان وعد من لوركا بحضوره دائما فى الأجازات وفى الصيف لقضاء أكبر وقت ممكن مع الأســــرة ·

وهكذا يشد الشاعر الرحال الى مدريد فى ربيع عام ١٩١٩ ، حاملا معه بطاقات مرور تعينه على غزو تلك العاصمة التليدة : حفنة من الملابس الجديدة بمافيها بذلة سهرة سوداء ، وخطابات تقديم الى معارف الأسرة ، « وبلدياتها » الغرناطيين فى العاصمة ، وفوق كل شىء : عدة نسخ من كتابه الأول انطباعات وصور ·

وكان مما ضاعف من الفائدة التى اســـتقاها بانتقاله الى العاصــــمة ، نزوله بالاقامة فى المدينة الجـــــامعية فى مدريد ·

Resedencía de Estudiantes • ولم تكن هذه المدينة الطلابية تقتصر على كونها نزلا لسكنى الطلبة الجامعيين فحسب ، بل انها كانت تمثل مركزا من مراكز الحركة الفنية الطليعية فى اسبانيا ، ونقطة وصل بين حركات الحداثة الفنية فى أوروبا وبينها فى أسبانيا، بما كانت تضمه أيامها من نخبة الشباب الجامعى المفكر المستنير • وكثيرا ماكان يطلق عليها اسم أكسفورد الاسبانية • وكانت المدينة تقع فى أعالى مدريد بالقرب من متحف العلوم الطبيعية ، وكان الشاعر « خيمينيث » يسميها « رابية أشجار الحور » • واستقبل مدير المدينة الجامعية لوركا بحفاوة وترحاب شديدين ، وسهل له جميع اجراءات الالتحاق ، لما كان قد سمعه عنه قبل مقدمه من رفاقه وزملائه الغرناطيين الذين سبقوه فى الالتحاق بالمدينة • ومنح لوركا غرفة تقاسمها مع أول زميل له ويدعى « بيبين بللو » ، وهى غرفة تطل نوافذها على فناء يسمى « فناء أزهار الدفلى » كان قد خططه أيضا الشاعر « خيمينيث » •

وهكذا انضم شاعرنا الى تلك البوتقة التى انصـــــهرت فيها الاتجاهات الحديثة فى كل أدب وفن • وكان من الطلاب المقيمين فى المدينة الجامعية كثيرون أصبحوا بعد ذلك أعلاما مشهورين : الرسام الشاعر « خوسيه مورنيو » ، السينمائى « لويس بونيوبل » الرسام السريالى « سلفادور دالى » ، الشاعر الأندلسى « رافييل ألبرتى » ، الشاعران « مانويل ألتولاجيرى » و « اميليو برادوس » • كذلك كان يتردد على المدينة ومنتدياتها فنانون وأدباء خارجيون ليسوا من الطلبة ، منهم « بدور ساليناس » — « خورخيه جيين » — انطونيو متشاود » — يوجين دورس ، وعلماء فلاسفة كبار مثل « أونامونو » و « أورتيجا اى جاسيت » ، و « رامون منندث بيال » أحد المستشرقين الاسبان العظام • وكانت المدينة الجامعية محفلا ضروريا لأى أستاذ أجنبى يمر بمدريد ، وهكذا استمع لوركا فيها الى محاضرات من « البرت أينشتاين » و « هنرى برجســــون » و « برتراند راسل » وآخرين •

وسرعان ما اندمج لوركا فى هذا الجو الفنى الفريد ، بما وهبه من طلاوة الحديث واجادة القاء الشعر وانشاد الأغانى الشعبية ،

وفوق كل شيء بمعزوفاته على بيانو المدينة الجامعية الذى كان لا يكاد يقوم عنه · وكانت أسعد لحظاته هى التى يجلس فيها الى ذلك البيانو العتيق ليعزف الألحان الكلاســـيكية التى يطلبها منه الحاضرون ببراعة عظيمة ، ثم ينتقل منها الى عزف وغناء المقطوعات الشعبية التى تعلمها وحفظها منذ صباه فى القرى ووسط الحقول · وكان من بين من هام بهم من الكلاسيكيين : شوبان وموزار وبيتهوفن ورافيل وديبوسى ، والبنينز ودى فايا الاسبانيان ·

وكانت مدريد كلها ميدانا رحيبا مفتوحا أمام الشاعر يجول فيه بحثا عن غذاء لروحه ومشاعره الفنية ، فكان كثير التردد على المتاحف التى تزخر بها العاصمة ، ولاسيما متحف « البرادو » ــ مثيل متحف اللوفر الفرنسى وصنوه ــ حيث أغرم بلوحات «فلاسكيز» و « جويا » و « الجريكو » · وقد حفزه اعجابه بلوحات ذلك الأخير الى زيارة متحفه وبيته فى مدينة طليطلة ، على مسيرة ساعة ونصف من مدريد ·

ورغم أن لوركا كان نادرا ما يحضر درسا نظاميا فى الجامعة التى التحق بها ، الا أنه كان كثير التردد على مكتبة الجامعة لالتهام كتب الأدب التى تزخر بها · كذلك كان يتردد على « أتنيو مدريد » وهو المركز الثقافى والفنى المعترف به فى العاصمة ، وكان يمثل الثقافة التقليدية للبلاد ، ويوجد مثيل له فى كل مدينة اسبانية ·

غير أن تكوين لوركا الفنى والثقافى لا يرجع الى الكتب فحسب ، بل وأيضا الى كوكبة الثريا من الأساتذة والزملاء والأصدقاء من شعراء ورسامين وموسيقيين ممن حفلت بهم الحياة الثقافية والفنية فى ذلك الوقت ·وكانت ثمة مجموعة من الأصدقاء توثقت عرى المحبة والود بينهم وبين لوركا أكثر من غيرهم ــ سينضم الى بعضهم فيما بعد ليكونوا فيما بينهم جيلا جديدا من الأدباء والفنانين هو جيل ٢٧ · ومن هؤلاء « خيراردو دييجو » ، « داماسو ألونصو » ، « لويس ثيرنورا » ، « بدرو ساليناس » ، « فيسنتى الكساندرى » ، « ادواردو ماركينا » ، « خورخيه جيين » ، « سلفادور دالى » ، وذلك جانب رهط الغرناطيين الذين انتقلوا الى مدريد وهم « رافاييل

ألبرتى » ، « مانويل أنخليس أورتيث » ، « اميليو برادوس » ، « مانولو ألتولاجيرى » ، « ملشور فرناندز ألماجرو » • وقد أصبحت هذه الأسماء ، كماهو الحال مع لوركا ، شهيرة فيما بعد ، ومنهم من حصل فى السنوات الأخيرة على جائزة نوبل للأدب ، وهو فسنتى الكساندرى •

وقد أضرم هذا الجو الفنى والأدبى النار فى فؤاد لوركا ، الذى كان مشتعلا أصلا بحب كل ماهو فن وشعر ، وأسهم هو فى هذا الجو بما كان لديه من خيال شعرى وموسيقى وطريقة للحياة المكرسة للفن الخالص • ويضيف مؤرخ حياته « لويس كانو » : « غير أن أكثر ماكان يجتذبه هو الحياة نفسها بما فيها من عروض حية ثرية ، وحرية تجربة مشاعر وانبطاعات متنوعة عميقة • ولو أنهم خيروه بين الأدب والحياة لاختار الحياة ، مع كل ما يكنه من حب للأدب والفن • لقد كان همه الأول أن يحيا ويرى من يحيون حوله » •

وهكذا كانت حياة لوركا فى مدريد وفى المدينة الجامعية بها ، مهرجانا متصلا من اللقاءات والموسيقى والشعر وتبادل الانبطاعات وأحاديث الصداقة والفن • وكانت لقاءات الأصدقاء تتم فى أماكن كثيرة من مدريد ، وكان لوركا يحب التجوال فى الحى القديم من المدينة ، بحاناته القروسطية الســاحرة ، وأرتياد متنزه العاصمة الأنيق المسمى « الرتيرو » ، أو حضور عروض الرقص الشــعبى « الفلامنكو » ، والاستماع الى أغانيه الشعبية التى تحاكى ايقاع الانشاد العربى القديم تمام المحاكاة • والى جانب هذا ، كان لوركا يتردد على عدة حلقات فنية وأدبية تحاكى ندوة « الركن الصغير » الغرناطية ، ولكن فى صورة أوسع • وكان من أشهر تلك الحلقات حلقة مقهى «الاديو » ، وحلقة مقهى « البرادو » التى يغلب عليها اتجاه « الماورائية » الذى تأثر به لوركا فى بعض قصائده ولوحاته عن طريق صداقته لنجم الحلقة الرسام « باراداس » • كذلك تردد الشاعر على حلقة كاتب جيل ٩٨ المشهور « فاليى انكلان » التى كان يعقدها فى عدة أماكن مختلفة وكان يتردد عليها كثير من زملائه الكتاب والفلاسفة •

مسرحية فاشلة وديوان ناجح

وسرعان ما تعرف لوركا على كثير من شخصيات عالم الفن والأدب فى مدريد · وكان من بين من تعــــرف عليهم « جريجوريو سييرا » ، مدير مسرح « اسلافا » أحد كبار المسارح فى العاصمة ، وهو واحد من الشخصيات الأشد تأثيرا ونفوذا فى الحياة المسرحية آنذاك · وحدث أن استمع ذلك المسرحى الكبير الى شاعرنا وهو يتلو نوعا من الحكاية الخرافية الشعرية تدور حول فراشة جميلة يتحطم جناحاها فتســـقط فى عش للجداجد ، حيث ترعاها الأم الحشرة ويقع الابن فى غرامها · ولكن ما أن تشفى الفراشة حتى تطير هاربة من ذلك العش الكريه ، تاركة وراءها الصرصور الصغير ينعى حبه · وأعجب « دون جريجوريو » بالقطعة الشعرية اعجابا شديدا ، واقترح على لوركا أن يقوم بتحويلها الى مسرحية ، عارضا تقديمها على خشبة المسرح الذى يتولى ادارته · ووافق لوركا ، رغم أنه لم يكن قد كتب للمسرح من قبل ، ولكنه اعتمد على وفرة قراءاته للمسرح الاسبانى ودراسته المجيدة له ، وكذلك لأن موضوع الخرافة الشعرية كان يشده ويعيد اليه ذكريات طفولته حين كان يقضى النهار مطارحا الحشرات والهوام الحديث · وأتم الشـــاعر كتابة المسرحية ، واختار لها « دون جريجوريو » عنوان « سحر الفراشة اللعين » ، وهو الاسم الذى نشرت به بعد ذلك فى الأعمال الكاملة للوركا · وقد انقسم أصدقاء لوركا بصدد هذه المسرحية الى فريقين ، فريق متحمس للشاعر الا أنه يرى أن مثل هذه المقطوعات لاتناسب المسرح الاسبانى ولا تتفق مع ذوق رواده ، بكل تقليديتهم وتحفظهم · وفريق آخر ذهب الى حد أبعد فى رد فعله تجاه المسرحية

فأشار عليه بأن يمزقها كلية . ولكن مخرج المسرحية ـ وهو المسرحى المدير دون جريجوريو ـ أصر على تقديمها ، معتبرا اياها صيحة طليعية أخرى تضاف الى التقاليع الدادائية(*) التى كانت قد بدأت تنتشر فى ذلك الوقت .وهكذا كان ، وأفتتحت المسرحية فى ليلة ٢٢ من مارس ١٩٢٠ . وصدقت توقعات الأصدقاء ، فان جمهور مدريد ـ الذى ألف مشـاهدة أشخاص واقعيين يجسدون أفكارا وعادات وتقاليد قريبة الى ذهنه ـ لم يكن ليبتلع فكرة مسرحية يلعب ممثلوها أدوار الحشرات . ورغم الاطار الفنى الذى توفر للمسرحية، من ديكورات « بارادإس » و « ميجنونى » ، وموسيقى « ديبوسى » و « جريج » ، وتمثيل الممثلة المشهورة آنذاك « أرجنتينيتا » ، الا أن الجمهور قابلها بالتعليقات الساخرة وشيعها بالصفير ودق الأرجل ، فغطى على جماعة أصدقاء لوركا وزملائه الذين صفقوا تشجيعا له . ولم يستمر عرض المسرحية أكثر من تلك الليلة اليتيمة . غير أن هذا الفشل لم يكن ليفت فى عضد شاعرنا المحب للحياة ، والذى صحب رفاقه بعد العرض الى أحد مطاعم مدريد للاحتفال بعرض المسرحية وبفشلها الجماهيرى فى نفس الوقت .

على أنه اذا كان ذلك هو مصير أول أعمال لوركا المسرحية ، فان الأمر قد اختلف بالنسبة الى أول دواوينه الشعرية . وقد تطلب الأمر منه وقتا طويلا حتى يقتنع بالحاح أصدقائه بضرورة جمع القصائد التى يلقيها عليهم وطبعها فى ديوان يحمل اسمه . وهكذا يصدر ديوانه الأول تحت اسم « كتاب أشعار » فى ١٥ من يونيو ١٩٢١ ، ويضم بين دفتيه ٦٨ قصـيدة هى حصيلة ما كتبه فى السنوات الثلاث الماضيات . وقد كتب الشـاعر فى مقدمته لهذا الديوان : « اننى أقدم فى هذا الكتاب صورة صادقة لما كانت عليه

(*) حركة فنية تأسست عام ١٩١٦ فى زيورخ على يد « تريستان تزارا » ، تؤكد على أهمية التعبير الفطرى الذى لا يخضع للعقل والمنطق ، واختير اسمها بحيث لا يعنى أى شىء على الاطلاق . انتقلت الى باريس مع مؤسسها عام ١٩٢٠ ، وانضم اليها الشعراء المجددون ومنهم بريتون واراجون وايلوار . تطورت بعد ذلك الى السيريالية .

فترة طفولتى وصـــباى ، تلك الأيام التى تربط بين الماضى وبين ما أعيشه الآن من أوقات · وعلى الرغم من أوجه القصور فيه ، فان قصائده تذكرنى بكل خطوة من خطى طفولتى الزاخرة بالمشاعر ، وأرانى فيها وأنا أجرى وسط الحقول ، بينما الجبال تنتصب شامخة على البعد » ·

وهكذا كانت قصائد الديوان حقا تمتلىء بذكريات الريف ، من نباتات وحيوانات وطيور وهوام ، مع المشاعر الانسانية الصادقة التى تنبض تجاه هذه العناصر التى أفعمت حياةالشاعر فى طفولته ·· ونثبت هنا نص حكاية شعرية خرافية ـ تماثل الحكاية التى كانت منشأ المسرحية الأولى الفاشلة ـ وهى مثال على هذا النوع الذى أغرم به لوركا ، بعنوان « لقاءات قوقع مغامر » وظهرت فى ديوانه الأول :

الصباح الهادىء
ينضح عذوبة صبيانية ·
والأشـــجار
تبســط أذرعتها نحو الأرض ·
وبخـــار راجف
يغطى الحقول المزروعة
وتنسج العناكب فى الهواء
طرقا من الحرير ،
خيوطا من البللور الصـــافى ·
وفى ممر الأشـــجار
يتلو غدير أنشودته وسط الأعشاب ·
والقوقع ،
برجوازى الطريق المسالم
يتأمل المــكان

فى غفلة ورقة ٠
وبعث فيه هدوء الطبيعة الالهى
عزما وجراة
ونسى آلام مســـكنه
فتاق أن يرى نهاية الطريق
أخذ يمشى ويمشى
ودخل فى غابة من اللبلاب والقريض
كان بها ضفدعتان عجوزان ،
أخذ منهما الضجر والأمراض ،
تتشـــــمسان ٠



كانت احداهما تتمتم :
« هذه الأغانى الجديدة
لا نفع فيها » ٠
وردت عليها الأخرى ،
جريحة كانت وعمياء :
« كلها ياصديقتى كلها
حين كنت فى مقتبل حياتى
آمنت بأنه لو سمع الله أغانينا فى النهاية
لأغدق علينا من رحمته ٠
وبعد أن عشت هذا الدهر
فاننى لا أؤمن بذلك بعد عن خبرة
ولهذا فاننى لم اعد أغنى ٠٠ »



كانت الضفدعتان تشكوان
وهما تطلبان حسنة
من ضفدعة شابة
تمر فى زهو وخيلاء
وسط أعواد العشب

*

وارتعب القوقع امام منظر الغابة
أراد أن يصرخ
ولم يســــتطع
واقتربت منه الضفدعتان

*

قالت الضفدعة العمشاء :
« هل هو فراشــــة ؟ »
وردت الأخرى :
بل ان له قرنين ·
انه القوقع ·
أأنت من موطن آخر أيها القوقع ؟ »

*

ـ « لقد خرجت من مسكنى
وأرغب أن أعود اليه سريعا »
ـ « انه حشرة غاية فى الجبن »
قالت الضفدعة العمشاء متعجبة :

ألا تغنى أبدا ؟
ـ لا أغنى
ـ ولا تسـبح !
ـ كلا . لم أتعلم ابدا .
ـ ولا تؤمن بالحياة الأبدية ؟
ـ وماهى ؟
ـ هى الحياة أبدا فى المياه الساكنة
الى جانب أرض مزهرة
تعطى لنا لذيذ الطعام .
ـ قالت لى جدتى المسكينة
حين كنت صغيرا
انى سأرحل عند مماتى
عبر الصحائف اللينة
للأشجار العالية
فقالت الضفدعتان غاضبتين :
ـ ما كانت جدتك سوى كافرة
ان الحقيقة هى ما نقوله لك .
صـــدقنا .

*

وهتف القوقع باكيا وهو يئن :
ـ « لماذا راودتنى نفسى الى رؤية الطريق ؟
أجل ، اننى أؤمن دائما بالحياة الأبدية
التى تبشـــرانى بها .. »

*

وابتعدت الضفدعتان
يستغرقهما الفكر
وانطلق القوقع مذعورا
يضرب فى جنبات الغابة ٠

❋

وسكتت الضفدعتان الشحاذتان
كابى الهول
ويتساءل احداهما :
ـ هل تؤمنين أنت بالحياة الأبدية ؟
وترد الضفدعة الجريحة العمشاء فى حزن :
ـ كلا ٠٠ لست أنا ٠
ـ ولماذا قلنا للقوقع اذن أن يؤمن ؟
وتقول الضفدعة العمشاء :
ـ لماذا ٠٠ ؟ لا أدرى لماذا
ان الانفعال يغمرنى
حين أشعر بالاصرار
الذى ينادى به أبنائى الله
من عند الترعة ٠

❋

ويعود القوقع المسكين أدراجه ٠
وعبر الطريق ٠٠٠
ينبجس صوت متماوج من ممر الأشجار
ويتلاقى القوقع مع جماعة من النمل الأحمر

تسير صاخبة جلبة
تجر وراءها
نملة قد تقصفت قرونها
ويصيح القوقع : صبرا أيتها النملات
لماذا تسئن هكذا لزميلتكن ؟
احكين لى ما فعلت
وساحكم بالعدل
احكين لى ايتها النملات » ٠

*

وتقول النملة التى شارفت على الموت ،
تغمرها الأحزان :
« لقد رايت النجوم ! »
وتصيح النملات المهتاجات :
ماهى هذه النجوم ؟
ويتساءل القوقع متفكرا :
النجـــــوم ؟
وتكرر النملة « أجل
لقد رأيت النجوم
صعدت الى أعلى شجر فى ممر الأشجار
ورأيت آلاف العيون
تطل من آفاق الغياهب »
ويسال القوقع :
ولكن ، ماهى هذه النجوم ؟
ـ انها أنوار

نحملها فوق رءوسنا
وتعلق النملات الأخريات :
نحن لم نرها ٠
ويقول القوقع :
لا يصل بصرى الا الى الأعشاب

*

وتتعجب النملات الأخريات
وهن يحركن قرونهن :
سنقتلك ٠
ما أنت الا كسولة منحرفة
ان العمل هو شرعتك

*

وتقول النملة الجريحة :
لقد رأيت النجوم
ويصدر القوقع حكمه :
اتركنها تمضى
واذهبن أنتن الى شئونكن
فحالا سوف يهدها التعب
فتموت

*

وعبر الهواء العذب
تمر نحـــلة
وتشـــم النملة المحتضـــرة

عبير الأصـــيل المترامى
وتقول : أهو من يأتى
كيما يحملنى معه الى النجوم ؟

*

وتهرب النملات الأخريات
حين يرونها ميتة

*

ويزفر القوقع
ويبتعد مذهولا
وقد غمرته الحيرة
بسبب الأبدية الخالدة
ويهتف : الطريق بلا غاية !
ربما كان يفضى الى النجوم
ولكن تثاقلى الشديد سيمنعنى من الوصول ٠
ــ يجب ألا أفكر فيها ٠

*

كان الضباب يغشى كل شىء
من شمس فاترة وغمام
وأصوات أجراس بعيدة
تدعو الخلق الى الكنائس
والقوقع ،
برجوازى الطريق المسالم
يتأمل المكان
فى ذهول وقلق

ويتبين من استعراض قصائد هذا الديوان أن لوركا لم يكن قد دخل بعد الى عالم الرمزية الذاتية التى ستغير شعره بعد فترة ما بما يتضمنه من صور واستعارات شعرية غريبة ، بل جاء شعره فيه اسبانيا أصيلا يضرب بسهم فى عالم الواقع ودنيا الفولكلور الشعبى عميق الجذور · لقد كانت هذه القصائد نوعا من التعبير الأندلسى ،يتغنى فيها الشاعر بالمظاهر المحسوسة فى بيئة ريف الأندلس العاطر ومدنه · ونجد فى هذا الديوان أيضا تأثيرات شاعر نيكاراجوا « روبين داريو » ، « خوان رامون خيمينث » ، والشاعر الفرنسى « بودلير » · وكانأهم ما أخذه عن « داريو » رائد الحداثة فى الشعر الاسبانى ، الشعور المأساوى بالطبيعة والخوف المبهم من المستقبل ، والحيرة بين الكآبة والمزاح ، وكذلك مزج غنائيته بأفكار فلسفية بسيطة · وتبرز هذه العناصر فى قصيدة رائعة من قصائد هذا الديوان :

اليوم أشعر فى فؤادى باختلاجات غريبة
للنجـــــوم
ولكن خطواتى تفقد مســـــارها
فى روح الغيوم
الضـــــوء يقطع أجنحتى
وعذابات أحــــزانى
تغمر ذكرياتى فى نبع أفكارى

*

كل الورود بيضـــــاء
بيضـــــاء كأحـــــزانى ·
وليس البياض فى الورود ذاتها
بل ان الثلج قد غطاها
وقبلا سطع عليها قوس قزح ·

والروح آيضا تعرف ثلجها
وثلج الروح له ندف من القبلات
وأشكال تسقط فى قاع الظلمة
أو فى نور من يفكر فيها •

*

ويسقط الثلج من على الورود
ولكن ثلج الروح يبقى
وتصوغ قبضة الزمان منه كفنا أبديا •

*

هل ياترى يذوب الثلج
حين يحملنا الموت الى غياهبه ؟
أم سيكون هناك ثلج آخر
وورود أخرى أكثر كمالا ؟
هل سيحل علينا السلام
كما قال لنا الرب
أم لن يكون هناك حل أبدا
للمشكلة ؟

*

وماذا لو كان الحب خداعا ؟
من يشجعنا على الحياة
لو جرفنا الشفق
فى تيارات العلم الحقيقى

علم « الخير » الذى يكاد لايكون له وجود
وعلم « الشر » الذى يكمن فى كل طريق ؟



لو أن نور الأمل انطفأ
وبدأ عصر بابل
أى مشعل سينير الطريق على الأرض ؟



لو أن الزرقة مجرد حلم
ماذا سيكون من أمر البراءة ·
ماذا سيكون من أمر الفؤاد
لو أجدبت ينابيع الحب ؟
لو ان الموت هو موت
ماذا سيكون من أمر الشعراء
ومن أمر الأشياء النائمة
التى لم يعد أحد يتذكرها ؟
آه ياشمس الآمال !
يا أيتها الرمال الرقراقة !
أيها القمر الجديد !
يا أفئدة الأطفال !
ياأرواح الأحجار الصلبة !
اليوم أشعر فى فؤادى باختلاجات غريبة
للنجـــــوم
وكل الورود
بيضـــــاء كأحـــــزانى ·

وقد لقى هذا الديوان صدى طيبا لدى القراء والنقاد · وفى سياق عرض قصائد الديوان والتعليق عليها ، أعلن النقاد مولد شاعر اسبانى جديد ذى موهبة دافقة هو فديريكو غرسيه لوركا · وجاء الاعتراف بموهبة الشاعرمن لدن أحد أبرز شعراء الاسبانية ، هو خوان رامون خيمينيث ، الذى أعجب بقصائد الديوان ودعا لوركا الى المساهمة بقصائده فى مجلة أدبية مرموقة كان يصدرها أيامها هى مجلة Indice أى « الدليل » ·

ويوفر هذا النجاح والاعتراف الأدبى دفعة جديدة لشاعرنا ، فيقبل على الابداع الشعرى بكل قواه · ورغم أن القصائد التى وضعها بعد نشره لديوانه الأول مباشرة لم يجمعها ديوان الا فى وقت متأخر ــ ديوان « أغان » الذى نشر فى عام ١٩٢٧ وديوان « أغان أولى » الذى لم ينشر الا قبيل وفاة الشاعر فى ١٩٣٦ ــ الا أنها ترجع فنيا الى تلك الحقبة من حياته ، مابين عام ١٩٢١ وعام ١٩٢٤ ، وتعتبر قصائد هذين الديوانين امتدادا لديوانه الأول من حيث التغنى بموضوعات شعبية وطفولية ، الا أن النغمة الشخصية الغنائية فيها أوضح ، وتمتزج فيها دفعة الحياة بالاحساس بوقع الموت · ورغم أن معظم تلك القصائد يتسم بشكل بسيط خفيف الا أن موضوعاتها ليست بالبسيطة أو الخفيفة أبدا · ورغم أنها تستخدم أغانى الأطفال التقليدية الشعبية ، وأن معظمها موجه فعلا للأطفال ، الا أن القارىء يحس على الفور أن هذا الاهتمام من جانب الشاعر هو اهتمام أكثر تعقيدا ، وأن نظرته فيها ليست بالطفولية · انظر الى تلك القصيدة مثلا . تلحظ أن مقصده لم يكن أبدا اخراج قصيدة أو أغنية بسيطة موجهة للأطفال :

اذا أنا قضيت

فاتركوا شرفتى مفتوحة

هاهو الطفل يأكل البرتقال

انى أراه من شرفتى المفتوحة ·

هاهو الفلاح يحصد القمح
انى احس به من شرفتى المفتوحة ٠

اذا أنا قضيت ٠

فاتركوا شرفتى مفتوحة ٠

وهناك أيضا كثير من « ثيمات » الاحباط والضياع والموت تلقى ظلالها على مسرح القصائد الطفولى :

عبر أشجار الغار
تطير حمامتان دكناوان
كانت أولاهما الشمس
والأخرى هى القمر ٠
قلت لهما : أيا جارتاى
أين قبرى ؟
قالت الشمس : فى ذيلى
وقال القمر : فى حلقى

*

وأنا الذى كنت أسير
وقد تمنطقت بالأرض
رأيت نسرين من مرمر
وفتاة عارية
كان الواحد منها هو الآخر
ولم تكن الفتاة أيا منهما
قلت لهما : أيها النسران الصغيران

أين قبرى ؟
قالت الشمس : في ذيلى
وقال القمر : فى حلقى
وعبر أشجار الكرز
رأيت حمامتين عاريتين
كانت احداهما هى الأخرى
ولم يكونا أيا منهما ٠

وثمة قصائد أخرى ألهمت نقادها ــ بموضوعاتها التى تمزج بين التشاؤم والبهجة ــ الرجوع فى تفسيرها وشرح صورها الفنية ، لا الى الفولكلور الأندلسى ، بل الى نظريات « فرويد » و « ويونج » ، بل و « جيمس فريزر » ٠



صـداقتان حميمتـان

مرت بحياة لوركا المبكرة علاقتان من علاقات الصداقة الحميمة ضربتا بجذورهما فى أعماق نفسه وكان لهما أثر عميق فى تكوينه الفنى ، فى مظهرين أســـاسيين : الموسيقى ، والرسم . ورغم أن لوركا قد أسهم فى هذين الميدانين اسهاما ملحوظا ، الا أن أهميتهما تكمن فى الأثر الذى خلفته ثقافته الموسيقية والتصويرية ـ وابداعاته فيها ـ على أدبه وشعره . وقد تبلورت صـــداقتاه هاتان ـ مع الموسيقار الاسبانى الكبير « مانويل دى فايا » والرسام السريالى « سلفادور دالى » ـ فى هذه الفترة من حياته ، بعد صدور ديوانه الشعرى الأول .

وترجع صلة لوركا بدى فايا الى عهد صبا الشاعر ، حين كان يقضى أمسيات عديدة مع أصدقائه من الفنانين الشبان فى كرمة دى فايا بغرناطة التى أطلق عليها اسم « اسلام عليك يامريم » . وكان الموسيقار الاسبانى قد أغرم بمدينة غرناطة وقرر بعد عودته من باريس أن يقيم فيها اقامة دائمة مع أخته فى تلك الكرمة ، التى تحولت بعد وفاته الى متحف . وكثيرا ما كان لوركا يجلس الى البيانو الخاص بالموسيقار ليسمع الحاضرين ألحانا وأغانى شعبية من أدائه . وكان فايا ولوركا يكنان الاعجاب بفن احدهما الآخر ، فالموسيقار معجب بموسيقية الشاعر ، الى حد أنه هتف مرة متعجبا : « كم أود أن أكتب شعرابالمهارة التى يعزف بها فديريكو على البيانو » .. أما لوركا فكان يرى فى « فايا » تجســـيدا لغرامه الأبدى بالموسيقى ، وذوقا فنيا مشتركا بينهما فى الايمان بالرؤية الأندلسية فى الحياة . وكان لوركا يحرص بعد انتقاله للاقامة فى مدريد على

زيارة الموسيقار كلما عاد الى غرناطة لقضاء أجازة من اجازاته ..
وفى احدى تلك الزيارات ، نبعت من أحاديث الصديقين ومناقشاتهما فكرة عقد مهرجان ومسابقة للغناء الفلامنكو القديم الذى يطلق عليه اسم الغناء العميق «Cante Jundo» وهو الغناء الشعبى الأندلسى بكل فروعه . ويتصف هذا النوع من الغناء الشعبى برنة الكآبة التى تشيع فيه ، وهو غناء يركز على أحاسيس المغنى الفردية الدفينة ويعبر المغنى من خلاله عن طقوس من المشاعر تنبجس من داخل النفس بشكل طوعى فطرى ، ويؤديه المغنون دون هدف للربح فى المقاهى والحانات وصالات الرقص الشعبية . وقد أرجع كثير من دارسى الفنون هذا النوع من الغنـــاء الى تأثير الاغانى والألحان العربية أيام الوجود العربى الاسلامى فى اســـبانيا ، وامتزاجها بالأغانى المحلية في الأندلس ، فأخرجت هذا النوع المتميز من الغناء الذى يختلف عن أى أغان وألحان شاعت فى بقاع أوروبا الأخرى غير اسبانيا .

وقد فكر الصديقان لوركا ودى فايا فى اقامة هذا المهرجان بدافع حبهما المشترك لذلك الفن ، وكحافز للعاملين فى هذا المجال ، وحرصا على استمراره وتغذيته . وكان عليهما أن يخلقا جوا تمهيديا للمهرجان ، فقام « دى فايا » بنشر مقال عنوانه « الغناء العميق : أصوله وقيمه الموسيقية وأثره فى الفن الموسيقى الأوروبى » ، والقى لوركا محاضرة فى المركز الفنى الغرناطى عنوانها « الغناء الأندلسى البدائى » ، نشر نصها بعد ذلك فى احدى صحف المدينة . وبهدف جمع الأموال اللازمة للانفاق على تنظيم المهرجان ورصد جوائز للفائزين فى مسابقة أفضل المنشدين ، أقيم حفل خيرى فى فندق قصر الحمراء بغرناطة ، تلا فيه لوركا اشعارا جديدة عرفت بعد ذلك باسم قصيدة الغناء العميق . وافتتح المهرجان اخيرا فى مســـاء ١٣ من يونيو ١٩٢٢ ، فى ميدان « الحب » بقصر الحمراء العربى ، وتكونت لجنة التحكيم فى المسابقة من « دى فايا » و « أندريس سيجوفيا »و « وماويل شاكون » ، ائمة الموسيقى الاسبانية وقتذاك . وخـــلال ليلتين متتاليتين ، اهتزت غرناطة كلها طـربا بأغـــانى المتسابقين .

وقد كسب انتاج لوركا من هذا المهرجان تلك القصائد التى وضعها للتمهيد له ، وهى قصائد تتسم بكل ماهو قاتم وحزين من الغناء الفلامنكو ، وقد صدرت فى صورة ديوان مستقل بعد ذلك ، فى عام ١٩٣٢ . ومنها تلك الأغنية المليئة بالشجن :

بدأ نحيب القيثارة
وانحطمت أقداح الفجر
بدأ نحيب القيثارة
وعبثا اسـكاتها
مسـتحيل اسـكاتها
تنتحب فى ايقاع رتيب
كما تبكى المياه
وكما تبكى الرياح
فوق تلال الثلوج
مسـتحيل اسـكاتها
تبكى أشـياء قصـية
رجال الجنوب السـاخنة
التى تشتاق الى الزنابق البيضاء
تبكى سهاما بلا أهداف
أصيلا دونما غد
وأول الطيور ميتا فوق الأغصان
آه أيتها القيثارة !
وقلبى
الذى أثخنته بالجراح
خمسـة سـيوف

وقد استمرت صداقة لوركا ودى فايا حتى النهاية ، وان كان قد اعتورها بعض الفتور نتيجة لشعور فايا بالاساءة من بعض سطور قصيدة كتبها لوركا عام ١٩٢٨ بعنوان « أنشودة الى قدس الأقداس » واهداها الى الموسيقار العظيم · وقد غضب دى فايا ، التقى الورع من تلاعب الشاعر المعتاد بالألفاظ ومن صوره الشعرية الجريئة وهو يتناول ذلك الموضوع الدينى ذا الحرمة التقليدية · وحدث جفاء قصير بين الصديقين ، ولكنهما ســـرعان ما تمكنا من تنقية الجو ونسيان ماحدث · وقد حاول دى فايا بكل الطرق التوسط لانقاذ صديقه لوركا من مصيره المحتوم من اندلاع الحرب الأهلية عام ١٩٣٦ ، ولكن جهوده كلها راحت أدراج الرياح ، كما سوف نعلم فى حينه ·

وكانت ثانية صداقات لوركا الخلاقة مع الرسام السيريالى « سلفادور دالى » · وقد بدأت تلك الصداقة فور التحاق دالى بالمدينة الجامعية بمدريد عام ١٩٢٣ والى مابعد شده الرحال الى باريس فى عام ١٩٢٩ بعد طرده من مدرسة الفنون الجميلة بمدريد · وقد أثر سلفادور دالى بآرائه الطليعية فى الفن فى كثير من زملائه الطلاب · وقد تبلورت تلك الآراء فيما بعد فى انضمامه الى الحركة السيريالية بقيادة « أندريه بريتون » فى باريس · وكان من أبرز من تأثروا بدالى وآرائه ـ عدا لوركا ـ صديقهما وزميلهما المشـترك فى المدينة الجامعية « لويس بونيويل » الذى اشترك مع دالى فى عمل أول فيليمين ســـيرياليين ، أثار أولهما ـ وهو فيلم « كلب أندلسى » ضجة صاخبة عند عرضه لأول مرة فى باريس عام ١٩٢٨، رغم أن مدة عرضه لا تزيد على نصف الساعة · وقد كتب دالى سيناريو هذين الفيلمين ، وأخرجهما بونيويل · وقد أصبح دالى بعد ذلك امام الرسم السيريالى ، وأصبح بونيويل امام الســـينمائيين السيرياليين ، وقد فاز بالأوسكار لأحسن فيلم أجنبى عام ١٩٧٢ عن فيلمه « سحر البرجوازية اللطيف » ·

وقد جمع بين لوركا ودالى حب التجديد والتطوير الفنيين علاوة على الرسم الذى كان أحد الموضوعات التى أغرم بها لوركا

وضــــرب فيها بسهم وافر ، حتى ان طبعة أعماله الكاملة تحتوى ـ بالاضافة الى أدبه ـ عددا كبيرا من لوحاته الفنية ٠

وقد تعمقت الصداقة بين دالى ولوركا فى أواخر عام ١٩٢٥ بعد دعوة دالى لصديقه الغرناطى لزيارته وقضاء أجازة عنده فى بلدته « قداقش » ، وهى بلدة بحرية صغيرة من أعمال « برشلونة » عاصمة مقاطعة قطلونيا فى الشمال ٠ وسرعان ما اندمج الشاعر مع أسرة صديقه : هو يسمعهم من قصائده وأغانيه وموسيقاه ، وهم يعرضون عليه فنونا قطلونية أصيلة ٠ وفى بيت دالى قرأ لوركا على الأسرة لأول مرة مخطوطة مسرحيته الجديدة « ماريانا بنيدا » التى لاقت اعجابا دفع الأب الى دعوة أصدقائه لسماع الشاعر وهو يتلوها عليهم مرة ثانية ٠

وكان طبيعيا أن ينهمك الصديقان فى فترة الزيارة فى مناقشات عديدة حول طبيعة الفن وامكانيات التجديد الفنى ٠ وقد تأثر لوركا باتجاه التجديد لدى دالى الذى ينحو نحو السيريالية ٠ وكانت المدرسة السيريالية قد انشقت عن الحركة « الدادائية » وتأسست كحركة مستقلة على يد الشاعر الفرنسى أندرية بريتون عام ١٩٢١ ٠

وقد تحددت الحركة أكثر عام ١٩٢٤ حين أصــــدر بريتون ورفاقه بيانا أكدوا فيه سمات الحركة ، وأبانوا فيه أن الحرية هى أساس السيريالية ، وأول الحرية عند الفنان هى الخلاص من قواعد الفن ٠ وقد انتشرت هذه الحركة بعد ذلك فى أوروبا كلها وصبغت كل الفنون بصبغتها وان اختلفت كل حالة عنفا وخفة حسب اختلاف أنواع الفنون ٠ وقد امتدت السيريالية الى الشعر والقصة ، ولكنها كانت أشد ظهورا فى الفنون التصويرية ، فبرزت فى الرسم والتصوير والسينما والنحت ٠

وكان لوركا فى طليعة الأدباء الذين تأثروا بالاتجاه السيريالى، وظهر ذلك فى شعره فى اختياره للصور الفنية فى قصائده ٠ وقد بدأت هذه الصور الغريبة تغزو شعره وتستبين فيه تدريجيا ، منذ

قصائد ديوانه « حكايا الغجر » ، الى أن وصلت الى أقصى ذروتها من السيريالية الحقة فى قصائد ديوانه « شاعر فى نيويورك » ٠

كذلك فان صداقة لوركا ــ بل وحبه ــ لأخت الرسام دالى ، « آن مارى دالى » ، قد أثرا كثيرا على حياته العاطفية ٠ ورغم أن المعلومات عن هذه العلاقة غير واضحة ولا هى متوفرة ، الا أن كثيرا من مؤرخى حياته يرجعون الأزمة العاطفية التى مر بها فى عام ١٩٢٩ الى فشل هذاالحب وتحطمه ، والتى لم يجد الشاعر دواء منها الا السفر خارج بلاده الى نيويورك حيث قضى عاما وبعض العام فى الخارج ٠

وقد خــــرج لوركا من زيارته الأولى لدالى فى « قداقش » بقصيدة عنوانها « أنشودة الى سلفادور دالى » نشرت عام١٩٢٦ فى المجلة الفكرية الشهيرة التى كان يصدرها المفكر الاســــبانى « خوســــيه أورتيجا اى جاســــيت » وهى « مجـــلة الغــرب » «Revisat del Occidente» ٠ ونورد فيما يلى تلك القصيدة لأهميتها فى الدلالة على الاتجاه السيريالى الذى بدأ الشاعر فى انتهاجه للتعبير عما يجيش فى نفسه من عواطف وأفكار ٠

وردة فى البستان العلوى الذى هفوا اليه
طوق يدور فى أعراف الفولاذ الصافى
وجبل الغيوم الانطباعية قد نضا عنه الثياب
بينما الرماديات تطل على حواجزها الأخيرة ٠



الرسامون الجدد ، فى مراسمهم البيضاء
يقطفون زهرة الجذر التربيعى المعقمة
وفى مياه السين جبل ثلجى من المرمر
يغطى النوافذ بالبرودة ويهش على أغصان اللبلاب



الناس تطأ الشوارع المغطاة بالبلاط فى قوة
والبللورات تعرض عن سحر الانتكاس ·
هاهى الحكومة قد أغلقت محلات العطور
والآلهة تخلد فرجاراتها المتثنية ·



غياب من الغابات والسواتر والجبهات
يزحف على أسطح المنازل العتيقة
والهواء يصقل عدساتهعلى صفحة البحر
ويرتفع الأفق كما لو كان سدا عظيما للمياه



بحارة يجهلون طعم النبيذ ومذاق الظلال
يذبحون جنيات البحر فى بحار من الرصاص
والليل ، تمثال الحصافة البهيم ذاك ،
قد طوق مرآة القمر المستدير بين يديه ·



تتملكنا رغبة من الصور ومن الحدود
ويأتى الرجل المتطلع حاملا المقياس الأصفر
وفينوس طبيعة بيضاء ميتة
بينما جامعو الفراشات يأبقون



« قداقش » ، فى مؤشر من المياه والتلال
تدعم درجات حجرية وتخفى القواقع ٠
الناايات الخشبية تنشر السكينة فى الهواء
واله هرم برى يوزع الفاكهة على الأطفال ٠



نيام صيادوك فى الرمال دونما رؤى
وفى أعالى البحار يتخذون الورود « بوصلة » تهديهم
وأفق المناديل الجريحة العذرى
يوحد بين زجاج السمكة وبين القمر الهائل



تاج متيس من سفائن بيضاء
يجعد جبهات مريرة وشعور من الرمال
حوريات البحر يقنعن ، ولكنهن لا يوحين
ويخرجن اذا لوحنا لهن بكوب من عذب المياه



آه ياسلفادور دالى ، ياذا الصوت الزيتونى
اننى لا أمتدح ريشتك المراهقة غير الكاملة
ولا لونك الذى يحيط بلون زمانك
ولكنى أمتدح أشجانك كخالد تقيده الحدود ٠



أيتها الروح القح ، تعيشين فوق رخامات جديدة
وتهربين من الغابة المظلمة للصور التى لا يصدقها عقل
تصل تهويماتك الى حيث تصل يداك
وتستمتع بأنشودة البحر من نافذتك



يمتلىء العالم بظلال صماء وفوضى
يصطدم بها الانسان فى أول اتصالاته بالدنيا
ولكن النجمات تخفى قطاعات طبيعية
تشير الى ملامح العالم الذى تعيشه كاملة



مجرى الزمن يتوقف ويعيد ترتيب نفسه
على الصور العددية لقرن وقرن آخر من الزمان
والموت المهزوم يلتجىء راجفا
الى دائرة اللحظة الآنية الضيقة ٠



عندما تمسك لوحة آلوانك ، ورصاصة فى الجناح
تسعى الى النور الذى يضىء كأس شجرة الزيتون
نور « منيرفا » العريض الذى يشيد السقالات
حيث لا مكان للنوم ولا لأزهاره السقيمة ٠



تسعى الى النور العتيق الذى ينوس على الجبين
النور الذى لا يهبط الى فم الانسان ولا يبلغ فؤاده
النور الذى تخشاه كرمات « باخوس » الحميمة
والقفزة الغاشمة التى تكمن فى منحدر المياه



انك تحسن صنعا أن ترفع رايات الانذار
على الحد المظلم الذى يســطع ليلا
فأنت لا ترغب أيها الرسام أن يلين لك الشكل ،
ندفة القطن التى تتغير كأنها سحابة فجائية



انت لا تجرى وراء اختراع السمكة فى اثنائها .
ولا الطائر فى قفصــه
لا فى البحر ولا فى الرياح
بل تجلو الغامض وتنقل الصور
بعد أن تضرب بحدقتيك الأمينتين
فى أجسادها الغضة المستدقة



تهيم غراما بالمادة المحددة الدقيقة
حيث لا تستطيع قباب الذبات أن تضرب خيامها
تهيم غراما بالمعمار المشيد فيما هو غائب
وتقبل الراية بوصفها دعابة لطيفة



ينطق الفرجار الصلب بقصيدته القصيرة اللدنة ٠
هاهى جزائر مجهولة تكذب صفحة الكون
وينطق الخط المستقيم بجهده العمودى
ويتغنى الزجاج العارف برياضياته ٠



بل أيضا وردة البستان الذى تعيش فيه
دائما أبدا الوردة ، فى شمالنا وجنوبنا :
ساكنة ، مركزة ، كأنما هى تمثال أعمى
غافلة عما تثير من جهود خفية ٠



وردة طاهرة تزيح كل ماهو مصطنع مرسوم
وتفتح لنا أجنحة البسمة الحانية
(فراشة لصيقة تزن خطوات طيرانها)
وردة التوازن الذى لا يعرف الآلام المنشودة ٠
دائما أبدا ٠٠ الوردة ٠
آه ياسلفادور دالى ، ياذا الصوت الزيتونى :
أنما أنا أنطق بما توحيه لى شخصيتك ولوحاتك
انني لا أمتدح ريشتك المراهقة غير الكاملة
ولكنى أغنى لثبات الاتجاه فيما تطلق من سهام ٠



أغنى لجهودك الجميلة التى تزينها الأنوار القطلانية
لحبك كل ما يحتمل تفسيرا
أغنى فؤادك الفلكى الحنون
كورق اللعب الفرنسى ، دون ما أية جراح



أغنى شوق التماثيل الذى تنشده دون ما كلل
الخوف من الانفعال الذى يترصدك فى الطريق
أغنى حورية البحر التى تتغنى بك
ممتطية صهو دراجة من اللآلىء والأصداف



ولكنى أغنى قبل كل شىء فكرا مشتركا
يوحد بيننا فى الساعات الحالكة والذهبية •
ليس الفن هو النور الذى يعمى أبصارنا
بل هو أولا الحب ، الصداقة ، المثاقفة



هم أولا ، قبل اللوحة التى تخطها فى صبر
قبل نهدى « تيريزا » ذات البشـــرة اليقظانة
قبل عقصة شعر « ماتيلدا » ناكرة الجميل
صداقتنا الملونة كأنما هى لعبة السلالم والثعابين •



آثار للآلة الكاتبة من دماء فوق الذهب
تســـطر فؤاد قطالونا الخـــالدة



فلتنيرك نجمات كحفنات خالية من البوازى
بينما تزدهر رسومك وحياتك



لا تلق بالا للساعة المائية ذات الأجنحة الغشائية

ولا لمنجل الاليجوريات القاسي ،

بل عليك أن تكسى ريشتك وتعرينها فى الهواء دوما

أمام البحر الذى تعمره السفائن والبحارة ٠

وفى منتصف مايو عام ١٩٢٧ ، يزور لوركا « دالى » مرة أخرى ، وينتقلان معا الى برشلونة للاعداد لتمثيل مسرحية « ماريانا بينيدا » هناك ٠ وقد استقبل فنانو قطلونيا وكتابها « لوركا » بحماس بالغ ، وتعرف على أفراد الحركة الطليعية وعلى المجلة التى كانوا يصـــدرونها باللغة القطلونية بعنوان « مجلة أصدقاء الفنون » ، كما تعرفوا هم عليه وعلى انتاجه ٠ وكثيرا ما طاف لوركا ودالى ، ومعهما الناقد القطلانى « سباستيان جاش » ــ بشـــوارع برشلونة وأزقتها الخفية ، يتناقشون فى صـــخب وحماس فى شئون الأدب والفن ٠ ويحكى جاش قصة طريفة اشـــتهرت عن لوركا ، حين اصطحب « لوركا » يوما الى « أتنيو برشلونة » حيث قدمه الى ندوة تضم شيوخ الأدب والفن هناك ، حيث سأله أحدهم فى اســـتهانة « من أى البلاد أنت أيها الشاب ؟ » فرد عليه الشاعر وهو يرفع يده عاليا فى رزانة : أنا من مملكة غرناطة ! » ٠ فالى هذا الحد كان احساس لوركا بالمجد الذى نالته بلدته أثناء وجود العرب فيها ٠ ولا غرو أن يكون هذا الرد قد أدهش الحاضرين جميعا ، وزاد فيه ما كان على فديريكو من مسحة شرقية وسمار عربى ، بشعره الأسود وملامحه المحددة وخياله المتوقد ٠

وقد وضع لوركا أمله فى ذلك الوقت فى مسرحيته « ماريانا بينيدا » التى عمدت فرقة الممثلة المشهورة « مارجاريتا شيرجو » الى تقديمها على مسرح جويا ببرشلونة فى يونية ١٩٢٧ ، وقام بتصميم ديكوراتها سلفادور دالى ٠ وكانت هذه ثانى مســـرحية يكتبها لوركا ، بعد مسرحيته الأولى التى فشل عرضها فى مدريد ٠ وقد قوبلت « ماريانا بينيدا » بنجاح ، ولاقت قبولا من النقاد ، وجلهم من أصدقاء الشاعر ٠ وهى وان لم تكن قد ثبتت اقدام لوركا فى

المسرح ، الا أنها قد عوضته عن فشل مسرحيته الأولى ، وجعلته يستمر فى الكتابة المسرحية ، كيما يخرج بعد ذلك أعماله الناضجة الناجحة · وقد قال الشاعر عن ظروف كتابة تلك المسرحية : « لقد كانت حياة « ماريانا بينيدا » فكرة من أشد أفكار طفولتى تسلطا على · لقد كنا نلعب ونحن أطفـــال بأن نمثل المروحة وهى تنفتح وتنغلق ونحن ننشد :

اه ما اتعس هذا اليوم فى غرناطة

الذى يجعل الحجارة تبكى من الحزن

عند مرآى « ماريانا » وهى تموت

على المشنقة بدلا من أن تعترف

وتتبع المسرحية الخطوط الهامة للحياة الحقيقية لماريانا بينيدا ، التى ولدت فى غرناطة عام ١٨٠٤ من أسرة كريمة وتزوجت أحد المناضلين من أجل الحرية ، الذى مات بعد الزواج بثلاث سنوات مخلفا لها طفلين · واحتضنت هى آراء زوجها الثورية وكفاحه من أجل حرية الشعب ، فمدت يد المساعدة الى المناضلين والمطاردين فى عصر استبداد الملك فرديناند السابع ملك اسبانيا · ونجحت بذكائها ومهارتها فى ابعاد الشبهات عنها · وانشغلت ماريانا فى تطريز علم ضخم للثوار يستخدمونه عند اعلان ثورتهم ، كتبت عليه كلمات : « القانون ، الحرية ، المساواة » · ووشى بها أحد الخونة ، وسقط العلم فى يد حاكم غرناطة الذى بادر الى اتهامها وسجنها · ولم يفلح التعذيب ولا المحاكمة فى انتزاع أى اعتراف منها ، الى أن أعدمت فى ١٨٣١ ، شهيدة للحرية ·

وقد شجع نجاح المسرحية فى برشـــلونة على عرضها فى العاصمة مدريد ، حيث بدأت عروضها على مسرح « فونتالبا » فى ١٢ اكتوبر ١٩٢٧ ولاقت نجاحا ملحوظا ·

وقد تزامن مع عرض هذه المسرحية للمرة الأولى فى برشلونة افتتاح معرض لرسوم لوركا فى المدينة فى « جاليرى دالماو » • وقد استمر المعرض من ٢٥ من يونيو الى ٢ من يوليو ١٩٢٧ ، وتضمن ٢٤ لوحة ، منها لوحة رسم فيها لوركا صديقه « دالى » • وقد قدم دالى فى مقال له بمجلة « المجلة الجديدة » ، عرضا نقديا للمعرض ، وقدم « سباستيان جاش » عرضا آخر له • وانتهت اقامة الشاعر فى برشلونة بمأدبة تكريم حافلة أقامها له الفنانون هناك •

وقبل العودة الى مدريد ، أمضى لوركا أياما فى « قداقش » مرة أخرى، عمل فيها مع دالى على وضع ما سمى « البيان اللافنى » وهو بيان يعبر عن آراء أصحابه الطليعية السيريالية فى الفن والأدب والحياة ، ويعتمد على تقرير اللاشخصانية واللاهوية واللاموضوع فى التعبير الفنى عموما • وقد تم نشر البيان فى أحد أعداد مجلة « أصدقاء الفنون » فى أغسطس ١٩٢٧ ، وترجمه لوركا ونشره عام ١٩٢٨ بالعدد الثانى من المجلة التى أصدرها ذلك العام فى غرناطة •



مهرجان اشبيلية وديوان الفجر

وفى ديسمبر ١٩٢٧ ، ينعقد فى « اشبيلية » مهرجان أدبى كان سببا فى اطلاق اسم جيل عام ٢٧ على لوركا وصحبه ، تمييزا لهم كجماعة أدبية عن الجماعة الأدبية السابقة عليهم مباشرة ، وهى جيل ١٨٩٨ الذى أشرنا اليه فى مطلع هذا الكتاب ٠ وقد استمد النقاد هذا الاسم من اجتماع معظم أفراد هذه الحركة الأدبية والفنية فى « اشبيلية » بدعوة من « أتنيو اشبيلية » فى مهرجان أقيم لتكريمهم واتاحة الفرصة أمامهم لالقاء أبحاثهم ومحاضراتهم وانتاجهم الفنى فى ذلك المركز الثقافى ، بوصفهم شباب حركة فنية ناهضة أرهصت أعمالهم بعصر ذهبى جديد للأدب الاسبانى يضارع العصر الذهبى الأول أيام سرفانتس ولوبى دى فيجا ٠

ويتفق النقاد الآن على أن أعضاء هذه الجماعة المؤسسين عشرة هم : فديريكو غرسيه لوركا ـ بدرو ساليناس ـ خورخى جيين ـ خيراردو دييجو ـ داماسو ألونصو ـ فيثنتى الكساندرى ـ رافاييل البرتى ـ لويس ثيرنودا ـ خوسيه برجامين ـ خوان تشاباس ٠

وكان أكثر ما يميز هذا الجيل وأفراده هو أنهم قد اتجهوا اتجاها مخالفا للجيل السابق عليهم مباشرة ، اذ عمدوا أساسا الى الرجوع الى الموروث الأدبى والفكرى الاسبانى محاولين ابتعاثه وسبر أغواره والخروج منه بالأفكار الاسبانية الأصيلة ٠ وعادوا الى درر الأدب الاسبانى فى عصره الذهبى ، يستلهمونها ويعيدون تقديمها بروح تفسيرية ونقدية جديدة ، مما أدى الى ابتعاثهم مؤلفين

كان النسيان قد أسدل ستاره عليهم ، أبرزهم « لويس جونجرا » (١٥٦١ ــ ١٦٢٧) شاعر القرن السادس عشر الميتافيزيقى الاسبانى . وكانت الأبحاث التى قدمتها جماعة ٢٧ فى مهرجان اشبيلية تدور حول ذلك الشاعر الغابر ، بمناسبة مرور ثلاثمائة عام على وفاته . وقد وجد أعضاء الجماعة فى شعره ارهاصات فكرية للنزعة السيريالية التى كانت فى أوجها آنذاك . وكان اكثر ما عادوا اليه من التراث الاسبانى ــ عدا أعمال « جونجرا » ــ أعمال سرفانتس ولوبى دى فيجا وكالديرون دى لآباركا وفراى لويس دى ليون ويوحنا الصليبى وجوستافو أدولفو بيكر وكيبيدو ، وهم كلهم شوامخ الأدب الاسبانى ممن صاغوا الضمير الاسبانى فى عصرهم وفى كل العصور . غير أن هذا لم يمنع أن يتأثر افراد جيل ٢٧ فى نفس الوقت بتيارات الحداثة التى وفدت الى أسبانيا من فرنسا والمانيا أساسا ، فكلهم تأثروا بالسيريالية والدادائية والماورائية Ultraism ، ومزجوا بينها وبين ملامح افكارهم الاسبانية الأصيلة فى وحدة فنية منصهرة .

كذلك تميز أعضاء الجيل بالاستعمال الفريد للاستعارة والصور الفنية فى أعمالهم ، اذ انهم قد تركوا لأنفسهم حرية مطلقة فى ربط أى شىء بأى شىء آخر يصل اليه خيالهم ، وبحثوا فى أعماق الشعور عن صلات خفية ذاتية بين الأشياء ، فانتجوا بذلك صورا شعرية جديدة غريبة فريدة . وستكون هذه الصور الفريدة أهم مايميز اشعار لوركا فى مرحلته التالية ، والتى ستتخذ بعد ذلك منحى مبالغا فيه مع دخوله ذروة تلك المرحلة ، مرحلة السيريالية الشعرية .

وقد قام لوركا باعداد بحث عن شعر « جونجرا » استغرق منه ثلاثة شهور ، لالقائه فى مهرجان اشبيلية . وقد قال فى ذلك البحث : « ان الأساتذة يشيرون عادة الى « جونجرا » بوصفه شاعرا عتيقا ، أصبح فجأة شاعرا مغرقا فى الصنعة ، وأنه حمل اللغة الى آخر ما تستطيع ، فثنى المعانى واخترع قوافى وايقاعات غريبة على الذهن العادى » . وعكف لوركا على دحض هذه الأقوال

بتبيان كيف أن الصور التقليدية التى تجرى على السـنة الناس العاديين لم تكن غريبة عن الصور التى ابتدعها « جونجرا » ، مثل تسمية الطرف البارز من أسطح المنازل « فخا منصوبا » ، أو تسمية نوع من الحلوى بشرائح السماء ، أو نهدات الراهبات ، أو تسمية القبة بنصف برتقالة • وقال لوركا فى بحثه : « على الشاعر أن يكون أستاذا فى الحواس الخمس ، وهى كما أرتبها : الابصار ـ اللمس ـ السمع ـ الشم ـ الذوق • وعليه ، من أجل أن يصبح سيد أجمل الصور الشعرية ، أن يفتح باب الاتصال بين جميع هذه الحواس ، وعليه فى أحيان كثيرة أن يطبع مشاعر حاسة منها على مشاعر حاسة أخرى ،بل وحتى أن يغطى طبائعها ويخفيها •• » •

ما أقرب هذا الى ما كتبه الدكتور « احسان عباس » فى كتابه « فن الشعر »(*) ، فى الفصل الذى عقده للمدرسة الرمزية ، من أن « ادجار ألان بو » ـ رائد الرمزية ـ « كان يريد أن يتخلص من أغلال الرومانطيقية ويدعو الى خطة مغايرة لها ، فيدعو الى عدم المحدودية فى موسيقى الشعر ، الى انطلاق ايحائى مبهم ، لا بالخلط بين عالم الواقع وعالم الخيـال بل بالخلط بين وظائف الحواس نفسها • ونحن نجد « بو » فى بعض قصائده « يسمع » قدوم الظلام ، ويقول فى قصيدة أخرى : « ومن كل قنديل انساب فى أذنى صوت رتيب ناغم لا ينقطع ! • ولذلك كان أول ما يبشر به الرمزيون اجراء الفوضى فى مدركات الحواس المختلفة ، ومحاولة الوصول بالشعر الى اللامحدودية التى وصلها فن الموسيقى » •

ومضى لوركا فى بحثه الذى ألقاه عن « جونجرا » يقول :

« ان جونجرا فى شعره يتناول الأشكال والموضوعات الكبيرة الحجم بنفس الحب والصدق الذى يتناول بهما صغار الأشياء ، وبنفس العظمة الشعرية ، فالتفاحة عنده تثير فى النفس ذات الكثافة فى الشعور التى يثيرها البحر ، والنحلة مليئة بنفس الدهشة التى

(★) دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٩ •

تمتلىء بها الغابة . وهو يرقب الطبيعة بعين نفاذة ، ويعجب بجمال هوية الأشياء التى تتساوى فى جميع أشكالها . ولهذا السبب فان التفاحة لديه تماثل البحر .. فحياة التفاحة ، من لحظة انبثاقها الى الوجود كبرعم صغير حتى سقوطها ناضجة ذهبية من الشجرة الى الأرض ، هى عملية عظيمة ومليئة بالأسرار كعملية ايقاعات البحر اللانهائية . وعلى الشاعر أن يدرك ذلك . فعظمة الشعر لا تعتمد على عظمة موضوعه ، ولا على حجمه ولا على مشاعره ، فالشاعر قد يصنع قصيدة ملحمية عن الصراع الذى يقع بين مختلف الخلايا النباتية وسط أغصان الكرمة ، أو يعطى انطباعا لا نهاية له للمطلق عن طريق شكل الوردة وعبيرها لا غير » . وهذا مافعله لوركا نفسه فى بعض أعماله مثل التراجيديا الشعرية التى كتبها عن غرام صرصار بفراشة .

وقد صفق الحاضرون طويلا للبحث الذى ألقاه لوركا فى المهرجان ، ودعوه فى ليال أخرى الى تلاوة قصائد ديوانه « حكايا الغجر » عليهم ، رغم أن تلك القصائد لم تكن قد صدرت بعد على شكل ديوان ، وانما كان صيتها قد طار بين أوساط الفنانين والشعراء جميعا .

وقد ترك مهرجان «جونجرا » عام ١٩٢٧ أثرا عميقا فى شعر لوركا أبعد وأعمق من أثر الدادائية والسيريالية ، اذ جعله يقرن بتلك الحركات الطليعية أيامها انغماسا رقيقا فى بئر الشعر الاسبانى فى ماضى العصور . واقترن كل هذا عنده بصورة جديدة من الشكل التركيبى الهندسى للقصيدة ، واستخدامات جديدة أصيلة للفعل اللغوى ، لابد أنه استوحاها من البناء العربى والاسلامى الذى فتح عينيه عليه فى ربوع غرناطة والأندلس ، مثل قصور الحمراء التليدة ورياض جنة العريف . ويستبين فى ثلاث قصائد طويلة للوركا ـ وهى « أنشودة الى قدس الأقداس » و « أنشودة الى وولت ويتمان » و « القديسة لوسى والقديس عازر » ، الاتجاه ناحية « الجنجورية » الجديدة التى سوف تنمو وتتطور لديه أكثر من ذلك حين يخرج من اسبانيا فى رحلته الأمريكية ، وتصوغ نفسها فى تركيبة فريدة

يمكن أن يطلق عليها « السيريالية الاسبانية » وهى ذات صلة وثيقة بلوحات دالى التى يمكن أيضا ارجاع أصـــلها الى فن الشـاعر الاسبانى جونجرا • لقد وضع لوركا فى تلك القصائد الثلاث قدمه على أول الدرب الذى سيقوده بعد ذلك الى مرثية مصارع الثيران ثم الى قصائد « شاعر فى نيويورك » • وقد نعى كثير من النقاد تلك النقلة الكبيرة فى فن لوركا ، من مرحلة غنائية فولكلورية دافقة الى مرحلة سيريالية مغرقة فى ابهامها • ولكن لوركا ، كما بنيت الناقدة « ملدرد آدمز » بحق فى كتابها عن الشاعر ، قد أقام ما يكفى فى صرح الغنائية الزاهى الراقد على أرباض قصر الحمراء ، وانه لم يكن من الممكن الا يتأثر بالجو الفنى والفكرى السائد أيامها • فالوقت آنذاك كان وقت ثورة واضطراب فى كل شىء ، حين كان العالم يقرأ الأرض الخراب لاليوت وعوليس لجيمس جويس وأشعار أندريه بريتون السريالية •

ومضى لوركا بعد مهرجان « جونجرا » فى تنقيح قصائد ديوان حكايا الغجر ووضعها فى صورتها النهائية ، محاولا الجمع فى حكاياه الشعرية بين الصورة الأسطورية للغجر ، وبين الواقع الذى كان يراهم عليه فى غرناطة • وقال فى ذلك : « ان النتيجة غريبة • بيد أننى أعتقد أن بها جمالية جديدة » •

ونشر الديوان أخيرا عام ١٩٢٨ فنال نجاحا فوريا ساحقا ونفذت نسخه فى أشهر قليلة • وهو يتكون من ١٨ قصيدة ، اشتهر معظمها بعد ذلك وتناقلتها الأفواه فى جميع البلاد الناطقة بالاسبانية، مثل قصائد : أخضر ، كم أحبك يا أخضـــر ، والحرس المدنى ، والزوجة الخائنة ، أنطونيو الكامبوريو •

ويأتى عنوان الديوان «Romancero» من كلمة رومــانثة «Romance» وهو شكل أدبى انتشر فى القرون الوسطى ، ويعتمد على صياغة قصائد شعبية ذات حبكة قصصية (ولهذا آثرنا ترجمتها بكلمة « حكايا ») ، مستقاة من موضوعات تاريخية ودينية واليجورية غنائية • وتتدرج موضوعات قصائد الديوان تحت أقسام

ثلاثة عامة : قصائد تدور حول القوى الخفية الغامضة ، وقصائد شعبية واقعية ،وقصائد من التراث التاريخى والدينى • ومن قصائد النوع الأول قصيدة « الحلوة والهواء » ، التى تنسج صورة رائعة لفتاة غجرية حسناء تنطلق على سجيتها وتمارس هوايتها فى الدق على الدف ، ولكن القوى الخفية المعارضة للغجر لا تتركها على حريتها ، وتتمثل تلك القوى هنا فى اله الريح الغاضب الذى يريد أن يوقع بالفتاة ، ولا ينقذها منه الا لمسة من لمسات العلم الواقعى الذى يمزج الشاعر بينه وبين عالم القوى الخفية الفانتازياتى فى براعة ساحرة :

تخطر الحلوة
وهى تدق الدف ذا جلد الغزال
فى درب من الجداول واشجار الغار •
ويهرب من الموســــيقى
الصمت الذى لا تقطعه النجوم
فيقع حيث يصطخب البحر ويغنى
لياليه التى تزخر بالأسماك
وعلى ذرى الجبل
نيام الخفراء
ويحرسون الأبراج البيضاء
التى يقطن فيها الانجليز
أما غجر المياه
فهم يشيدون تعريشات من الأصداف
ومن أفنان شجر الصنوبر الخضراء
للترويح عن أنفسهم •



تخطر الحلوة
وهى تدق الدف ذاجلد الغزال
وعند مرآها
هب الريح الذى أبدا لا ينام
سان كريستوفر العارى
مرصعا بألسنة سماوية
يرنو الى الفتاة
تعزف لحنا عذبا مغيبا ٠



يافتـــاتى
ارفعى ثوبك كيما أرى جســـدك
وأنضو بأصابعى العتيقة
زهرته الزرقاء ٠٠



وتلقى الحلوة الدف
وتجرى دون توقف
ويتبعها الريح الرجولى
مســتلا ســيفه الســاخن



ويزوى البحر من حفيف أمواجه
ويشحب لون أشجار الزيتون
وتغنى بآيات الخمائل
وصفحة اجراس الثلوج الصقلية



اجـــرى ياحــــلوة اجـــرى
كى لا يدركك الريح الأخضر !
اجـــرى ياحــــلوة اجـــرى
احذرى من أين يأتيك
« ساطيرا »(*) ذو الأنجم الدنيا
بالسنته الوضـــــاءة •



وغمر الفزع الحلوة
فدخلت ذياك البيت
فيما وراء اشجار الصنوبر
الذى يملكه قنصل الانجليز



وجاء ثلاثة من الخفر
وقد افزعتهم الصرخات
يضمون عباءاتهم حواليهم
وقبعاتهم مدلاة على الوجنات



ويقدم الانجليزى للغجرية
كوبا من اللبن الدافىء
وقدحا من الخمر
لم تقربه الحلوة من شفتيها



(*) اله من آلهة الغابات عند الاغريق مشهور يحبه للقصف واللهو .

وبينما هى تحكى باكية
قصتها لهؤلاء القوم
يهتاج الريح غيظا
ويعربد على الأسطح الاردوازية

ومن عالم الغجر أيضا يقدم لوركا قصـــيدة الزوجة الخائنة ويصور فيها تصرفات غجرى أصيل تجاه حبيبته ومذهب الشهامة الغجرى الذى حتم عليه ألا يعود الى تلك الحبيبة لانه عرف انها متزوجة :

اصطحبتها الى النهر
وكنت أظن أنها فتاة
فأتضح أن لها زوجـــا
كانت ليلة القديس جيمس
وكأنما عن اتفاق سابق
انطفأت مصابيح الشارع
واشتعلت حدقات الجداجد
وعند المنعطفات الأخيرة
لمست نهديها النائمين
فتفتحا لى على الفور
كأنها عيدان السنابل
ورنت فى مسامعى
ثنيات قميصها المنشى الناصع
كأنه قطعة حرير
تحكها عشرات السكاكين .
وتطاولت الأشجار

دونما انوار فضية فى كئوسها
ونبح أفق من الكلاب
بعيدا بعيدا عن النهر



وفيما وراء شجيرات التوت البرى
وخلف الحشائش والأشواك
افترشت لها مكانا على الأرض
تحت خصلات شعرها
وخلعت رباط عنقى
وخلعت هى رداءها .
وطرحت زنارى والمسدس
وخلعت هى صداراتها الأربعة
كانت بشرتها
أرق من الياسمين ومن العبير
ولم تكن لمرايا البللورية
سطوع طلعتها البهية
وأفلتت ساقاها منى
كالسمكة المذعورة
نصفها يضطرم بالنيران
ونصفها الآخر بالبرودة .
فى تلك الليلة
سرت فى أفضل الدروب
وامتطيت أحسن الأمهار
دونما لجام أو سروج ،

وأنا رجل
ولن أقص عليكم ما أسمعتنيه من كلمات ٠
لقد غمرنى نور من العرفان
فأحالنى رجلا وديعا
وحملتها بعيدا عن النهر
وقد غطتها الرمال والقبلات ٠
وتصــــارعت نصـــال الزنابق
حين أطاح بها الهواء

*

وتصرفت معها كما يليق
فبصفتى غجرى أصيل
أهديتها علبة تطريز كبيرة من الساتان
بلون القش
ولم أدع نفسى تهوى فى غرامها
لأن لها زوجا
رغم أنها قالت لى انها فتاة
حين اصطحبتها الى النهر ٠

وتكتمل صورة الغجرى الأصيل فى قصيدتين عن « أنطونيو الكامبوريو » ، فيتراءى للقارىء فيهما وصف دقيق له ، فهو سليل ألقاب عريقة فى عالم الغجر ، صوته قرنفلى رجولى ، بشرته معجونة بزيت الزيتون والياســـمين ، واهتماماته هى اهتمامات الغجر ٠ مشاهدة مصارعات الثيران ، والقتال ، ولكنه فى القصيدة الأولى يخون نفسه وجنسه بالاستسلام دونما قتال أو جهاد لرجال الحرس المدنى ، لذلك فهو يستحق كلمات قاسية يوجهها له الشاعر بأنه ليس

سليلا لأحد والا كان قد فجر نبعا من الدماء ذا خمس نفثات · ولكن « أنطونيو » يعوض ذلك فى القصيدة الثانية ، حين يدافع عن نفسه ضد أبناء عمومته الذين هاجموه بدافع من حسدهم اياه ، والحسد صفة دفينة فى الاسبان عموما وبين الغجر على وجه الخصوص · وهم يهاجمونه فيصارعهم ، ويتقافز بخفة الدلافين ، ويلطخ ربطة عنقه بدماء أعدائه · وهو قد حقق ما يتوجب عليه بالجهاد واسالة الدماء ، فلا عيب عليه بعد ذلك أن يقهروه آخر الأمر بعد أن يتكالب عليه الأربعة وهو واحد أمامهم ·

أما قصيدة « الحرس المدنى الاسبانى » فهى تصـــوير كامل لصراع الغجر مع العالم الخارجى الذى يحيط بهم ويمثل القانون واللوائح المدنية التى يضطرون الى التسليم بها · ويصور لنا الشاعر مدينة الغجر مليئة بالمتناقضات والمفارقات عن طريق صور حادة عجيبة ، كما يقرب من أذهاننا عالم الغجر بكل ما فيه من غرائب واختلاف ومزج بين العوامل الدينية والشعبية ، وهو من الطباع التى يتميز بها الغجر · وفى مواجهة مدينة الغجر يقوم القانون ، الذى تمثله فرقة من الحرس المدنى تهـــاجمها وتعمل فيها القتل والنهب :

الجيـــاد ســـود

وســـود حدواتهـــا
وعلى العباءات
تلتمع بقع من الحبر والشمع
جماجمهم من رصـــاص
لهذا لا يعرفون البكاء
ويخبون فى طريقهم
بأرواحهم الجلدية البراقة
محنيو الظهور ، يتسترون بالليل
وحيثما يحلون

يفرضون صمت المطاط الأسود
ووجل الرمال النواعم
يمرون حين يبغون المرور
ويخفون فى رؤوسهم
آفاقا غامضة
من مســـــدسات لا هوية لها



آه يامدينة الغجر !
الرايات فى جوانب الطرقات
والقمر وثمار القرع
مع الكريز المحفوظ
آه يامدينة الغجر !
من يراك وينســـــاك ،
يامدينة الأسى والمســـك
والابراج التى فى لون القرفة



وحين يســـدل الليل أســـتاره
الليل العميق العميق الليلى
يصوغ الغجر فى ورشــــهم
شموسا وســــهاما
ويقرع جوار جريح على كل الأبواب
وتغنى ديوك من زجاج
فى « شريش دى لافرونتيروه »

وتعرى الرياح جوانب الدهشة
فى الليل ، الليل الفضى
الليل العميق الغميق الليلى •

❊

أضاعت العذراء صاجاتها
والقديس يوســـف
وطلبا من الغجر
أن يبحثوا لهما عنها •
واتشحت العذراء بثياب الحكام
من أوراق الشيكولاته المفضضة
وقلادات من اللوز
ولوح القديس يوسف بذراعيه
من تحت عباءته الحريرية
خلفهما سار « بدرو دوميك »
بصحبة ثلاثة من سلاطين فارس
وكان الهلال يحلم بنشوة اللقالق
وغزت الرايات والقناديل الأسطح المنبسطة
ونوحت الراقصات العجفاوات أمام المرايا
مياه وظلال ، ظلال ومياه
فى « شريش دى لافرونتيره »

❊

آه يامدينة الغجر !
الرايات فى جوانب الطرقات

اخمدى أنوارك الخضراء
فرجال الحرس قادمون ·
آه يامدينة الغجر !
من يراك وينســـاك !



ويتقدمون مثنى مثنى من المدينة فى عيدها
وأحزمة الذخيرة
تخترق همسات النباتات النواضر
يتقدمون مثنى مثنى
ليل مضاعف من الثياب
ويتصورون اسماء
فترينة مهمازات المصارعة ·

وأحكمت المدينة ابوابها
متحررة من الخوف
واقتحمها أربعون من رجال الحرس
ليعيثوا فيها فسادا ·
وتوقفت الســـاعات ،
والبراندى ،
كيما يزيل الشبهات عنه ،
تنكر فى زجاجاته على هيئة نوفمبر
وطارت صرخات حادة

الخوذات •

[illegible]

من المقصات



وعلى أبواب بيت لحم
اجتمع الغجر
وغطى القديس يوسف جثة فتاة
وقد أثخنته الجراح
وتدق بنادق حادة عنيدة
على طول الليل
وتضمد العذراء جراح الأطفال
برضاب النجوم
ولكن رجال الحرس
يتقدمون ناثرين الدمار
حيث يحترق الخيال العارى المرهف عن آخره •
و « روز » سليلة « كامبريسو »

جالسة تنوح امام بيتها
وثدياها الداميان على صحفة امامها
وصبايا اخريات يهربن
وضفائرهن تتطاير فى الهواء
حيث تتفجر ورود من الديناميت الأسود
حين كانت كل الأسطح اخاديد فى الأرض
وهز الفجر اكتافه
فى جانبية حجرية طويلة



آه يامدينة الغجر !
ويبتعد رجال الحرس
عبر نفق من الصمت
بينما الجمرات تحيط بالمدينة من كل مكان



آه يامدينة الغجر !
من يراك وينســـــاك !
فليبحثوا عنك على جبهتى
مزيجا من القمر ومن الرمال

واشهر قصائد الديوان هى قصيدة « أخضر كم أحبك يا أخضر » وعنوانها الأصلى « حكاية السائرين نياما » والتى أوردناها كامنة فى بداية هذا الكتاب · وتدور أحداثها من خلال غيمة من الحلم أو من السحر ، فتبدو وكأنها تتراءى من خلال ذهن أحد السائرين فى نومهم ، أوشخصية عجزت عن مواجهة الواقع فتراه من خلال عالم

أخضر من الهذيان . ونرى فيها غجرى يعمل فى التهريب قد أصابه جرح مميت ، ويختفى من مطاردة رجال الدرك له فيتوجه فى الهزيع الأخير من الليل أو فى مطالع الفجر الى منزل الفتاة الغجرية التى يحبها والتى انتظرته طويلا ، ويسأل والدها العون ولكنه يجد الأب لسبب ما فى حالة صدمة . ويصعد الرجلان الى أدوار المنزل العليا التى يغمرها القمر بضوئه ، وهناك يجد أن الفتاة التى انتظرت حبيبها عبثا ، وهى تطفو على سطح خزان المياه الذى يسبح فى نور القمر ، ونفهم من بين السطور أنها قد انتحرت غرقا . وتعمل دقات رجال الدرك المخمورين على الأبواب آخر الأمر على زيادة حدة الجو النومى الذى يهيمن على القصيدة . ويفتتن الشاعر بذكريات وخيالات وعواطف الشخصيات التى تضمها القصيدة ، وهم كلهم فى حالة أزمة شديدة .

ويزيد الناقد « ستانلى بيرنشو » على ذلك بأن الشاعر نفسه يزيد من حمى الموقف بانتحـــاله نفس موقف شـــخصياته والتحدث نيابة عنهم . بالأبيات المتكررة التى تتردد فى ثنايا القصيدة فكل الشخصيات منجذبة الى نوع من الاخضرار وكذلك الشـــاعر أيضا الذى تستبد به فكرة الخضرة دائما على طول القصيدة .. وتتحرك الشخوص تحت سحر ضوء القمر الجميل والنذير فى نفس الوقت ، فهم من ذلك المنطلق ســـائرون جميعا فى نومهم : المهرب الجريح ـ الأب الهرم الذى هزه الحزن على ابنته فلم يعد يشعر بنفسه ـ الفتاة التى انتحرت بعد أن جنت من طول انتظار الأمل الأخضر فألقت بنفسها فى أحضان الموت الأخضر فى خزان المياه ـ بل وحتى رجال الدرك المخمورين الذين اقتفوا أثر المهرب وجاءوا يدقون على الأبواب .

وقد عمل النجاح الفورى لهذا الديوان على طير صيت لوركا وشهرته فى طول البلاد المتحدثة بالاسبانية وعرضها ، وســـرعان ما ترجمت قصائده ـ التى حركت مشاعر القراء وعواطفهم ـ الى معظم اللغات الأوروبية ولغات أخرى .

مجلة أدبية وأزمــة نفسية

قضى لوركا الوقت الذى انقضى بين نهاية مهرجان أشبيلية الذى تحددت فيه الخطوط العريضة للجماعة الفنية الجديدة ـ جيل ٢٧ ـ وبين أواخر شهر يولية ١٩٢٨ حين صدرت الطبعة الأولى من ديوانه الذى طال انتظاره « حكايا الغجر » ، فى تحقيق حلم أدبى طالما داعب خياله منذ زمن بعيد ، ألا وهو اصدار مجلة أدبية فنية وقد بدأ هو وصحبه فى التفكير فى ذلك منذ أوائل عام ١٩٢٦ ، نتيجة لمناقشاته مع أعضاء أتنيو غرناطة ، ثم مع « سلفادور دالى » فى برشلونة ٠ وكانت الفكرة الأولى عن ذلك ، هو اصدار مثل هذه المجلة كملحق أدبى للصحيفة الغرناطية « الحامى » El Defensor على أن يكون الملحق باسم « الديك » «Gallo» فيكون اسم الكامل « ديك الحامى » «El Gallo Del Defensor» ٠ثم تطورت الفكرة مع مر الزمن واتساع أبعاد البحث والنظر فيها ، فتقرر أنتكون المجلة مستقلة عن الجريدة المذكورة ٠ كما جاء وقت غلبت على لوركا نزعته الشرقية وميوله الطليعية المغرمة بكل غريب قصى ، فقرر أن يكون اسم المجلة « الديك السلطان » «El Gallo Sultan» ، ولكنه عاد بعد ذلك الى الاسم المجرد المقترح أولا ٠ وكانت فكرة لوركا عن هذه المجلة تتجاوزها الى تكوين حركة أدبية وفنية تكون المجلة نواتها ، فقبل صدور العدد الأول من « الديك » فى ٩ من مارس ١٩٢٨ ، أقيمت مأدبة كبرى لمحرريها ، كماجرى التخطيط لاصدار سلسلة من الكتب الطليعية تسمى « مطبوعات الديك » ، وتم تنظيم أمسيات شعرية ونقدية فى « أتنيو غرناطة » تدعو لها الجماعة وتنظم تحت اسم « أمسيات الديك » ٠ وكان مدير المجلة هو شقيق الشاعر ، فرانسسكو لوركا ، وتضم هيئة التحرير ، عدا شاعرنا : « خواكين أميجو » ،

« فرانسسكو أيالا » ، وغيرهما من رفاق الشاعر . وكتب فى العدد الأول من المجلة ، لوركا ، وخورخيه جيين ، وخوسيه برجامين ورسم فيه دالى « ومانويل أورتيث » . وقد أثارت الصفة الجديدة الطليعية للمجلة دهشة قرائها ، حتى أن لوركا كتب عن صدور عددها الأول قائلا : « لقد أثارت مجلة « الديك » ضجة حقيقية فى غرناطة . ان غرناطة مدينة أدبية ، ولم يمر بها أبدا شىء « جديد » . ولهذا فقد أثارت المجلة من الضجة مالا يمكن تخيله . وقد نفد العدد فى يومين ، ويدفعون الآن ضعف ثمنه للحصول عليه . وفى الجامعة ، أثارت أمس معركة بين المؤيدين للمجلة والمعارضين لها ، ولا حديث للناس والمقاهى والاجتماعات والبيوت الا عنها » .

ثم صدر العدد الثانى فى ابريل ، واحتوى على بعض أعمال لوركا الشعرية ، وترجمة الى الاسبانية للبيان « اللافنى » الذى وقعه الفنانون الطليعيون فى برشلونة وسبق نشره بالقطلانية فى مجلة « أصدقاء الفنون » . ورغم أن لوركا قد عمل فى الشهور التالية فى الأعداد لاصدار العدد الثالث من المجلة ، الا أن ذلك العدد لم ير النور أبدا ، وتوقفت المجلة لانشغال هيئة التحرير ، والشاعر نفسه ، فى مشاريع فنية أخرى ، خاصة وأن « سلفادرو دالى » كان يتأهب لشد الرحال نهائيا الى باريس بعد زيارات متقطعة لها . كما لا يغرب عن البال أن من بين أسباب عدم استمرار المجلة انها كانت جريئة أكثر مما تحتمله مدينة محافظة مثل غرناطة .

وكان من أسباب انشغال لوركا عن مواصلة اصدار المجلة ، تلك الأزمة النفسية الغامرة التى طحنته فى تلك الأيام ، والتى يتحدث عنها أصدقاؤه ورفاقه دون أن يتفقوا على أسبابها ودوافعها .. فبالرغم أن عام ١٩٢٨ شهد تحقيق حلم الشاعر فى اصدار مجلته ، كما شهد أيضا النجاح المدوى الذى ناله ديوانه « حكايا الغجر » ، فلم يكن لوركا يبدو سعيدا ، بل كان يميل الى الكآبة والحزن . كتب فى مايو « لخورخيه جيين » يقول : « ليست حالتى الروحية على مايرام . اننى أمر بأزمة عاطفية كبرى آمل أن أخرج منها معافى » . وقال فى خطاب آخر فى سبتمبر للكاتب الكولومبى « خورخيه

ثالايا » : « أنا أيضا فى غاية السوء · ان الأمر يحتاج الى كل ما وهبه لى الله من فرح حتى لا أتهاوى أمام كمية الصراعات التى هاجمتنى مؤخرا· بيد أن الله لا يتخلى عنى أبدا· لقد عملت كثيرا ، وما أزال أعمل ·فبعد أن أتم « أناشيدى » التى أعمل فيها ، سأغلق تلك الدورة الشعرية كيما أبدأ دورة أخرى · دورة من الشعر الذى « يفجر الشرايين » ، شعر بجانب « الواقع ويجسم انفعالاتى التى ينعكس فيها كل حبى للأشياء ·· » ·

ومع مطلع عام ١٩٢٩ ، يغرق فديريكو أحزانه فى العمل وفى الفن ، ما بين كتابة قصائد جديدة ، والقاء المحاضرات ، وحضور الندوات · ونشرت له « المجلة الأدبية » فى مدريد قصيدة نثرية بعنوان « ذبح الأبرياء » مصورة بريشة « سلفادرو دالى » · وكانت جماعة مسرحية تسمى « الثعبان » تجرى البروفات لاخراج مسرحية « دون تشمبرلين » ، وهى مسرحية قصيرة كتبها لوركا فى تلك الفترة ، ولكن منعت الرقابة عرضها بسبب موضوعها الجرئ على المستوى الأخلاقى السائد أيامها فى اسبانيا حيث تتنازعها القوى المحافظة الممثلة فى الملكية والكنيسة والاقطاع ، والقوى التقدمية التى يمثلها الطليعيون من المفكرين والمثقفين والفنانين ·

ولكن ·· هل صحيح ما يذكره بعض النقاد عن أن أصل أزمته النفسية هى حب فاشل مع « آن مارى دالى » أخت « سلفادرو دالى »؟ الواقع أن بعض من كتبوا سيرة حياة لوركا قد أشاروا الى ذلك دون أن يقطعوا فيه برأى ، نظرا الى عدم توفر أدلة ثابتة على ذلك ·· ولكن الثابت هو أن جميع هذه العوامل قد تفاعلت فى نفس الشاعر ، فدفعته الى السعى الى الابتعاد عن اسبانيا بعض الوقت ، للخروج مما سماه « الخدر العاطفى » الذى كان يشعر به آنذاك · وقد هيأ له راعيه وصديقه « فرناندو دى لوس ريوس » الأستاذ بجامعة غرناطة الفرصة لذلك حين عرض عليه أن يسافر معه فى رحلة الى الولايات المتحدة الأمريكية ، بأن حصل له على منحة لدراسة اللغة الانجليزية فى جامعة كولومبيا بنيويورك مدتها عام واحد ·

وقدسارع لوركا بنقل قراره السفر فى تلك الرحلة الى صديقه « كارلوس مورا » الدبلوماسى الشيلى فى مدريد فى خطاب قال فيه : « أى كارلوس ، مساء السبت أغادر غرناطة لأكون فى مدريد صباح الأحد · وسأبقى هناك يومين أرتب فيها بعض أمورى بها ، ثم أسافر من فورى الى باريس فلندن حيث أبحر منها الى نيويورك · أيدهشك هذا ؟ انى أكاد أموت ضحكا من قرارى هذا · ولكنه يناسبنى وهو هام لحياتى ·· ان نيويورك تبدو لى فظيعة ، ولكنى ذاهب اليها لهذا السبب نفسه · أعتقد أننى سأسر فيها · انى أرحل برفقة صديقى العظيم « فرناندو دى لوس ريوس » ، وهو أستاذ قديم لى وشخصية ساحرة للغاية ، وهذا سيسهل أمورى هناك ، فأنا كما تعلم لا حيلة لى فى أمور الدنيا العملية » ·

وهكذا رحل الشاعر بصحبة الأستاذ فى أواخر مايو ١٩٢٩ · ولم يبدو أن « باريس » و « لندن » قد تركتا كبير اثر فى نفس لوركا ، أكثر من روعته أمام اللوحات المشهورة فى متحف « اللوفر » وكنوز المتحف البريطانى · وبعد لندن ، قاما بزيارة سريعة الى اكسفورد لزيارة العلامة الاسبانى « سلفادور دى مادرياجا » الذى كان مقيما هناك ، ومن اكسفورد ذهبا بالقطار الى ميناء « ساوثامبتون » · حيث أبحرت بهما عابرة المحيطات « أوليمبيك » فجرا الى نيويورك ·



التجربـــة الأمريكيـــة

حتى قبل أن ترسو السفينة بلوركا فى ميناء نيويورك ، داهمه الحنين الى الوطن ، فنراه يكتب وهو مازال على ظهر السفينة الى صديقه « كارلوس مورلا » يقول : « يجتاحنى كل يوم نهم الى بلادى والى صالونك ·· حنين الى الثرثرة معكم والى أن أغنى لكم أغنيات أسبانيا العتيقة ·· لا أدرى لماذا سافرت · انى أسأل نفسى هذا السؤال مائة مرة فى اليوم ·· أتطلع الى صورتى فى مرآة القمرة العتيقة فلا أتعرف على نفسى ·· انى أبدو « فديريكو » آخر » ·

ووصلت السفينة الى ميناء نيويورك فى أواخر شهر يونيو · ونزل لوركا فى حجرة فى مدينة الطلاب الملحقة بجامعة كولومبيا فى قلب نيويورك النابض ، وفى قاعة تدعى قاعة « جون جاى » · وعكف الشاعر منذ البداية على التعرف على الأوساط الاسبانية فى المدينة الهائلة ، أكثر من اهتمامه بمتابعه دروس اللغة الانجليزية ، التى سرعان ماهجرها بعد اقتناعه بأنه لا يصلح أساسا لتعلم هذه اللغة ·· ويقول عنه راعيه الثقافى فى نيويورك ـ أتخل دل ريو ، أستاذ الأدب الاســـبانى فى جـامعة « كولومبيا » ـ « لقد رحـــل عن نيويورك دون أن يتعلم كلمة واحدة بالانجليزية · وكان ينطق الكلمات القليلة التى يضطر أحيانا الى استخدامها ، بالنطق الاسبانى ! » ·

ولكنه مقابل ذلك كان يشعر بالغبطة حين يجمع حوله طلاب اللغة الاسبانية بالجامعة ويغنى لهم الأغانى الشعبية الاسبانية التى تعلمها منذ طفولته ، أو حين يمضى فى لقاءات طوال مع الأصدقاء الاسبان من الفنانين والكتاب فى نيويورك : أتخل دل ريو ، والرسام

جابرييل غرسيه ماروتو ، وداماسو ألونصو الأستاذ الزائر فى « هنتر كولدج » ، وفديريكو دى أونيس ، والشاعر المشهور ليون فيليبى ٠

كانت صدمة تعرفه على مدينة نيويورك كالصاعقة التى انقضت على فؤاده فهزته هزا عنيفا ٠٠ هاهو ٠٠ شاعر اندلسى رقيق ، ابن غرناطة الهادئة الجميلة الساحرة ، يهبط فى مدينة مختلفة تماما عن كل ما رآه من قبل ، مدينة حديدية ، هائلة تصطخب ببشر همهم الأول هو المادة والتفوق المادى ، ويصطدم فيها بالأبنية الحديدية السامقة ، ويسير فى الطرقات فيخيل اليه أن ناطحات السحاب هذه سوف تطبق بقضها وقضيضها على روحه فتزهق وتخمد منه الأنفاس ٠ وقد حدث مرة وكان يسير فى وسط الحشود فى قلب نيويورك أن توقف بغتة وصاح بأعلى صوته : انى لا أفهم شيئا البتة ! » وتبعها بضحكته المجلجلة الشهيرة ٠

بيد أنه ، وبعد مدة من الصراع مع مدينة ناطحات السحاب والجاز الذى كان يسود المدينة آنذاك ـ بدأ فديريكو يغوص فى القاع التراجيدى للمدينة ، ويدرك أن وراء المظهر الباهر لنيويورك ثمة كثيرا من الألم والوحدة ينبضان ، وكثيرا من الرعب والخوف فى الانسان ٠ وقد أتيح للشاعر أن يشهد الصراع الذى يستعصى على الحل بين ذروة حضارة آلية ، وبين الغرائز الأولية التى لاتزال فى داخل النفس البشرية ، وثمرة هذا الصراع التى تتمثل أحيانا فى المعاناة والوحدة ، والحزن الوديع لزنوج حى هارلم ، وقسوة المادة فى « وول ستريت » ، حى المال فى نيويورك ٠

وقد أثمرت التجربة الأمريكية التى مربها لوركا قصائد عديدة كانت فيض مشاعره وتجاربه فى المدة من يوليو ١٩٢٩ حتى يونية ١٩٣٠ ، ورافقت تنقلاته ورحلاته التى قام بها فى تلك الفترة ٠ ومن الجدير بالذكر أن هذه القصائد لم تنشر فى ديوان الا عام ١٩٤٠ بعد وفاة لوركا ، بعنوان « شاعر فى نيويورك » ، وان كان معروفا أن الشاعر كان يعتزم اصدارها معا تحت هذا العنوان ، تصحبها صور

مأخوذة عن الحياة فى نيويورك · ويفتتح هذا الديوان بتجسيد فنى لأول المشاعر التى هزت لوركا فى الولايات المتحدة، الوحدة الطاغية، اذ أن عنوانا عريضا للجزء الأول من الديوان يحمل اسم : «وقصائد الوحدة فى جامعة كولومبيا » · ثم نطالع فى القسم السادس العنوان العريض « قصائد الوحدة فى فيرمونت » · وتحمل قصائد الديوان أسامى معبرة ، مثل: « كنيسة مهجورة » ، « رقصة الموت » ، منظر الجماهير التى تقىء ، منظر الجماهير التى تبول ، جريمة قتل ، مدينة لاتنام ، الطفلة الغـــارقة فى البئر ، فاتحة للموت ، ليلية الفراغ ، أطلال ، قمر وبانوراما الحشرات ، الفرار من نيويورك ·

ويعتبر الكثير من قصـــائد هذا الديوان تعبيرا ، ومعادلا موضوعيا ، وخلقا فنيا حيا للمشاعر المتضاربة التى أثارتها الحياة والمدن الأمريكية خاصة نيويورك ، فى نفس الشاعر ·

وكان يحلو لفديريكو أن يتجول فى شوارع المدينة الهائلة مع أصدقائه الاسبان ، يجولون فى الأحياء الشعبية وخاصة حى هارلم ـ حى الزنوج ـ الذى أوحى له باحدى أهم قصائد الديوان :

انشـــودة الى ملك هارلم :

بملعقة !
كان يقتلع عيون التماسيح
ويلهب مؤخرة القردة
بملعقة ·

نيران كل يوم
تقعى غافية على حجر الصوان
والخنفسات السكرى من شراب الأنيس
تتناسى طحالب الضيعات ·

هذا العجوز الذى يغطيه القطر
يتجه الى الموضع الذى ينتحب عنده الزنوج
بينما ارتفعت ملعقة الملك بالصرير
ووصلت خزانات المياه العفنة ·

فرت الأزاهير على طرف منحدرات الهواء الأخيرة
وعلى أكوام الزعفران
سحق الأطفال السناجب الصغيرة
فى خفر من خبل ملطخ ·



... نعبر الجسور
ى الزنجى الخجول
ر بعبير الرئة يطرق أصداغنا
اناسى الدافىء
تقتل بائع الخمور الأشقر
ومن اصـــدقاء التفاح والرمان
يجب أن نضرب بقبضات مقفلة
حبات اللوبياء الصغيرة التى ترجف مليئة بالفقاعات
وذلك حتى يغنى ملك هارلم مع جمهرته ،
حتىتنام التماسيح فى صفوف طويلة
تحت معدن القمر الذى لايحترق
وحتى لا يشك احد فى الجمال المطلق
لمنفضات الريش والمباشر ونحاس المطبخ وآنياته ·



أواه ياهارلم ! أواه يا هارلم ! أواه يا هارلم !
ليس هناك من أسى يعادل عينيك المضغوطتين ،
يعادل دماءك الراجفة من داخل خسوفك المظلم
يعادل عنفك القانى الأصم الأبكم تحت ظلال الأضواء
يعادل مليكك العظيم السجين الذى يرتدى ثياب البوابين



وكان الليل ينصدع عن سحالى هادئة من العاج
والفتيات الأمريكيات
يحملن أطفالا ونقودا فى بطنهن
والشباب يغشى على طبيب التمدد بعد الاستيقاظ



هؤلاء هم !
هؤلاء هم من يشربون الويسكى الفضى الى جوار البراكين
ويبتلعون شذرات القلوب على جبال الدببة المثلوجة
تلك الليلة
كان ملك هارلم يقتلع عيون التماسيح
بملعقة جامدة صلبة
ويلهب مؤخرة القردة
بملعقة
وبكى الزنوج حيارى وسط مظلات وشموس ذهبية
وشد الخلاسيون مطاطا
يجتاحهم الشوق الى بلوغ الجسد الأبيض

والرياح قد طمست المرايا
وحطمت عروق الراقصين



زنوج ، زنوج ، زنوج زنوج
ليس للدماء من منافذ فى ليلك المدلهم
وليس هناك من خفر
ويهدر الدم غاضبا من تحت الجلد
ويعيش فى شوكة الخنجر وفى صدر مناظر الطبيعة
تحت الكماشات ونباتات « الوزال »
لقمر السرطان السماوى •



الدم الذى يبحث فى آلاف الدروب
عن الموت المغطى بالدقيق
وعن رماد الياسمين •
سماوات تيبسة مائلة
حيث تنحدر مجاميع الكواكب على الشطآن
مع النفايات المهملة



الدم الذى يتطلع فى بطء بذيل عيونه
مصوغا من حشائش الحلفاء المعتصرة
ورحيق الأنفاق

الدم الذى يغطى الرياح الغافلة بالصدا
ويحيلها الى مجرد أثر
ويذيب الفراشات على زجاج النوافذ



انه الدم الذى ياتى
الدم الذى سـيأتى
من قمم السـقوف والأسـطح
من كل الجوانب
ليحرق بلهيبه كلورفيل النسوة الشقراوات
ويئن تحت أرجل الفراش
وجها لوجه مع ارق الأحواض
ثم ينصدع فجرا من التبغ وظلا من الصفرة



لا مفر من الهرب
الهرب من حول الأركان
والانغلاق فى الأدوار العليا
لأن لباب الغابة سيخترق الشقوق
ليترك على جسـدك آثار خسوف واهية
وأسى زائفا
للقفاز الماحل والوردة الكيميائية



وفى فترة الصمت الحكيم
يبحث الجرسونات والطباخون
ومن يلعقون بلسانهم جراح المليونيرات
عن الملك فى الطرقات
أو فى زوايا الملح



ريح جنوبية خشابية
مائلة فوق الحماة الزنجية
تبصق على القوارب المحطومة
وتدفع المسامير فى أكتافها
ريح جنوبية
تحمل أنيابا وعباد شمس وحروف الأبجدية
وبطارية فولتية
فيها زنابير غارقة



وكشف النسيان عن نفسه
بثلاث نقاط من الحبر على المونوكل
وكشف الحب عن نفسه
بوجه متفرد خفى على صفحة الحجر
واجتمع اللبلاب والنوار على السحاب
فى صورة صحراء من الجذوع
خالية من أى ورود •



ذات اليمين وذات اليسار ،
فى الجنوب وفى الشمال ،
يرتفع جدار لا تنفذ منه الشامة ولا ابرة الماء
لا تبحثوا أيها الزنوج
عن شق تجدون وراءه القناع المطلق
بل ابحثوا عن شمس المركز العظمى ،
وقد تحولتم الى أناناسة تطن وتئز ،
الشمس التى تنساب خلال الغابات
على يقين بأنها لن تجد أى حوريات
الشمس التى تدمر أرقاما
ولم تخترق أبدا حلما
الشمس ذات الوشم تنساب عبر النهر
وتخور فى طريقها
تتبعها التماسيح الأمريكية



زنوج، زنوج ، زنوج ، زنوج
لا الثعبان ولا حمار الوحشى ولا البغل
يشحب لونه عند الموت
ولا الحطاب يدرى متى تموت الأشجار المصطخبة التى يقطعها
حتى يهاجم الشوكران والعوسج والقريض
الأسطح الخلفية



حينئذ ايها الزنوج
حينئذ

بامكانكم أن تقبلوا عجلات الدراجة فى جنون
وتضعوا أزواجا من الميكروسكوبات فى كهوف السناجب
وترقصوا أخيرا فى ثقة
بينما أزهار الشوك
تقتل «موسانا » على مقربة من احراش السماء ٠



آه ياهارلم المتنكرة !
آه ياهارلم التى تهددها جمهرة بذلات دونما رؤوس !
همهماتك تصلنى
همهماتك تصلنى عبر جذوع الأشجار والمصاعة الكهربية
عبر دمعات رمادية
حيث تطفو سياراتك المغطاة بالأسنان
عبر جياديتة وجرائم متمنمة
عبر مليكك العظيم اليائس
الذى تتطاول لحيته حتى البحر ٠

وكان من بين من تردد عليهم الشاعر ، صديقه « هرشـــل بريكل » ، فى منزله فى « بارك افنيو » مع شارع رقم ٥٦ ، حيث كانت تجتمع هناك ثلة من الفنانين والأدباء ٠ وبعد احدى السهرات هناك ، توجه الحاضرون لزيارة كنيسة « سان بابلو » ، التى قال عنها لوركا فيما بعد انها « أجمل كنيسة فى العالم » ، وتفرق موسيقاها أى موسيقى أخرى سمعها فى اسبانيا ، وحيث بدت له الكنيسة جزيرة من الجمال المعمارى والفنى المصفى وسط طوفان من البرودة والبشاعة والآلية التى تغرق فيها نيويورك ٠ نيويورك ٠٠ نيويورك التى ألهمته هذه القصـــيدة المشـــهورة عن « الفجر فى نيويورك » :

الفجر فى نيويورك
تظلله أربعة أعمدة من الوحل
وعاصفة من الحمائم الســـود
يخضـــن فى المياه العفنة ٠
الفجر فى نيويورك
ينتحب على طول السلالم الهائلة
وينشد ياسمين الأسى
المرتسم وسط شعيرات السنابل ٠



ياتى الفجر
ولا أحد يستقبله فى الأفواه
فليس ثمة صباح ولا أمل باسم
وأحيانا
تخترق العملات الأطفال المهجورين
وتلتهمهم
فى أسراب ثائرة ٠



يعرف أوائل من يخرجون عن ثقة
انه لن يكون ثمة فردوس ولا حب خالص
يعرفون أنهم يتجهون الى وحل الأرقام واللوائح
الى الألعاب التى لا تعرف فنا
الى العرق الخالى من الثمار ٠



ويندفن الذور فى السلاسل والضوضاء
فى التحدى المشين لعلم بلا جذور
ويتطوح الناس المؤرقون فى كل حى
كأنهم خرجوا لتوهم من حطام الدماء •

ويطلق الشاعر أيضا قصيدته « صرخة كى روما » من فوق مبنى « كرايزلر » الذى كان أيامها أعلى مبنى فى العالم قبل سنوات من اتمام مبنى الامباير ستيت فى نيويورك أيضا ، وهى قصيدة اتهامية ضد حضارة رأس المال الميتة ، ومنها :

يجب على الزنوج الذين يرفعون المباصق
الفتية الذين يرتجفون من هول المديرين الشاحب
النسوة الغارقات فى الزيوت المعدنية
جمهور المطارق والفيولين والسحب
يجب أن يصرخوا
حتى ولو فجروا أدمغتهم على الجدران
يجب أن يصرخوا أمام القباب
يجب أن يصرخوا فى جنون من النيران
يجب أن يصرخوا فى جنون من الثلوج
يجب أن يصرخوا ورؤوسهم مغطاة بالروث
يجب أن يصرخوا كأنما هم الليالى مجتمعة
يجب أن يصرخوا بصوت محطوم
الى أن ترجف المدائن كالأطفال
وتحطم سجون الزيت والموسيقى
لأننا نريد خبزنا كفاف يومنا
زهرة الحور والحنان الأبدى المنتثر
لأننا نريد أن تنفذ ارادة الأرض
التى تهب ثمارها للجميع •

لقد تجسدت مدينة نيويورك فى نفس الشاعر كرمز للزيف الذى تخلقه الحضارة القائمة على المادة ، مقابل الصدق الذى تبثه الطبيعة التى يحلم بها الشاعر والتى وجدها وعاشها فى وسط الفلاحين والغجر وكل ماهو طبيعى وتلقائى وفطرى فى النفس البشرية • ولم يكن أمام لوركا فى تصويره الهجوم العاتى لتلك الحضارة المادية وافتئاتها على الطبيعة الا اللجوء الى أشكال من التعبير السيريالى ، فوق الواقعى ، والى أن يخضع أفكاره وصوره لعالم جديد غريب من الرموز والصور السيريالية • ومعظم قصائد الديوان تبين جور الكبريت المطفأة تلتهم سنبلات قمر الربيع ـ آلام المطابخ المذمونة تحت الرمال ـ يعض الحقل ذيله كيمايجمع الجذور فى نقطة واحدة ـ ستأتى السحالى لتعض الرجال الذين لا يحملون ـ حيث الفيلسوف يلتهمه الصينيون واليسروعات ـ ذئاب وضفادع برية تغنى فى المواقد الخضراء ـ خرج السرطان فى منتصف الليل الى الممرات وتحدث مع القواقع الخاوية عن السجلات •• الخ ••

وتخللت السنة التى أمضاها لوركا بعيدا عن بلاده زيارات لمناطق أمريكية غير نيويورك ، ففى شهر أغسطس سافر الى « ادين ميللز » بولاية « فرمونت » تلبية لدعوة من صديقه « كمنجز » الذى كان قد عرفه فى مدينة الطلاب بمدريد من قبل ومن هناك كتب يقول :

« ان الطبيعة هنا رائعة • بيد أنها تبث فى النفس كآبة لا حد لها وانها لتجربة طيبة لى • السماء تمطر باستمرار • ان الأسرة التى أقيم بين ظهرانيها لطيفة جدا ورائعة ، بيد أن الغابات والبحيرة تغرقانى فى حالة من اليأس الشعرى لا يمكن احتمالها • انى أكتب طول النهار ، وأشعر بنفسى مجهدا عند المساء • لقد انسدل الليل ، وأوقدت مصابيح الغاز ، وعادت كل طفولتى الى ذاكرتى ملفوفة فى مجد من شقائق النعمان وسنابل وقمح » • وهناك ، كتب « قصائد الوحدة فى فيرمونت » •

وفى نهاية أغسطس « سافر للقاء أنخل دل ريو » فى مزرعة فى جبال كاتسكيل كان الأستاذ يمضى فيها أجازته مع عائلته •• ويحكى الأستاذ قصة وصول لوركا الى المزرعة على النحو التالى :

« فى اليوم المحدد لوصوله ، لم نتسلم أى برقية أو اخطار بالموعد كما سبق أن اتفقت معه ·· وعند حلول المساء بدأ القلق يعترينا من أن يكون قد ضل طريقه أو تعرض لحادث ، حين أبصرنا أخيرا عربة أجرة تتهادى متثاقلة فى الطريق المترب مثيرة الغبار من حولها · وكان ثمة تعبير استسلام على وجه السائق ، أما لوركا فما أن رآنى حتى اهتاج وأخذ يصرخ ويصيح · وكان ما حدث هو أن لوركا قرر عند وصوله الى البلدة أن يستقل تاكسيا دون أن يعرف كيف يشرح العنوان للسائق · وأخذ التاكسى يروح ويجىء فى الطريق المغبرة وسط الجبال ، الى أن أعطى أحد المارة العنوان الصحيح للسائق · وكان العداد قد سجل ١٥ دولارا ، بينما لوركا قد أنفق كل ما يحمل من نقود ، مما ملأ قلبه بالفزع بالا ينجح فى الوصول الى مقصده ويفاجأ السائق بافلاسه · وفى الحال ، خلع لوركا مظهرا خياليا مروعا على الحادث ، وزعم أن السائق ــ الذى لم يستطع التفاهم معه ــ قد حاول سرقته وقتله فى جانب مهجور من الغابة !

وأمضى الشاعر أسبوعين فى هذه المزرعة الجبلية ، كتب فيها من قصائد الديوان : ليلة الفراغ ، أطلال ، طفلة غارقة فى البئر ، منظر لقبرين وكلب آشورى · ثم قضى الشاعر بقية أجازته الصيفية فى منزل الأستاذ « فديريكو دى أونيس » بالقرب من « نيوبرج » ، ثم عاد بعدها الى حجرته فى المدينة الجامعية بنيويورك ، وكتب عندها يقول لصديقه كارلوس مورلا : « ·· لقد عاد فديريكو القديم الى الظهور ·· » ·

وهكذا فعلت الرحلة الأمريكية فى نفس الشاعر فعل السحر ، فعل التجديد ، فعل التطهير ، بكل ما تحمله من حسرات ومفاجآت ووحدة وعزلة وألم · لقد أمسك الشاعر حقا بنيويورك من داخلها ومن خارجها ، عن طريق دفعة جامحة من الصور الدرامية : وحدة مأساوية وانفجار للحياة فى حركات وصور مزعزعة متفرقة ، كأنها شريط لفيلم سيريالى · ان قصائده تبين لناكيف كانت نفس الشاعر تغرق فى مدينة نيويورك ، بل وقد وصل الحال بلوركا أن خشى أن تبتلعه المدينة الهائلة فى جوفها وكان على وشك الهروب منها والعودة

الى غرناطة بلدته الوديعة الهادئة كالنهر الناعس ، مالم تصله فى ذلك الحـــين دعوة من معهد الثقافة الاســـبانى ـ الكوبى لالقاء محاضرات فى عدة مدن من جزيرة كوبا · ووافق فديريكو على الفور ، وأبحر فى ربيع ١٩٣٠ الى هافانا العاصمة التى احبها من أول نظرة ، والتقى فيها بجذوره الاسبانية الراسخة التى كانت قد شارفت على الاختفاء فى نيويورك · ولم يقتصر الأمر هناك على العودة الى سماع اللغة الاسبانية ، بل والعودة الى الأجواء الدافئة والبشرة السمراء الذى تذكره بأهل الأندلس ، وليس هناك اقرب الى العنصر الأندلسى من العنصر « الكريولى » ــ وهم أهل امريكا الجنوبية المخلطين · وكان لوركا يقول هناك : « اننى أشعر وكأننى فى مدينة قادش » · وتبادل الشاعر الحب والاهتمام مع شعراء كوبا وفنانيها ، وكان مع القائه المحاضرات والأشعار ، يتشـــرب عذوبة استوائية كوبا : موسيقاها ، شمسها ، بهجتها ، وهام بصفة خاصة بالألحان « الأفروكوبية » التى يتميز بهاالسود هناك ·

وخلال اقامته فى كوبا ، واصل كتابة بعض المناظر فى عملين مسرحيين : « الجمهور » ، و « عندما تمر خمس سنوات » ، كما نشر فى مجلة « الموسيقى » بهافانا ، قصيدته التى استوحاها من الموسيقى الأفريقية ــ الكوبية ، والتى ضمنت ديوانه شـــاعر فى نيويورك ، وهى بعنوان « موسيقى الزنوج » فى كوبا » :

حين يطلع البدر
سأذهب الى سنتياجو دى كوبا ·
سأذهب الى سنتياجو ·
فى عربة من المياه السوداء
سأذهب الى سنتياجو ·
وسوف تغنى سقوف النخيل
سأذهب الى سنتياجو ·
حين تشتاق النخلة أن تصبح لقلقا

سأذهب الى سنتياجو
وحين تشتاق شجرة الموز أن تصبح صدفة
سأذهب الى سنتياجو
مع رأس « فونسكا » الشقراء
سأذهب الى سنتياجو
ومع وردية روميو وجولييت
سأذهب الى سنتياجو
بحر من الورق وفضة من العملات النقدية
سأذهب الى سنتياجو
آه ياكوبا ، آه يالحين جاف البذور !
سأذهب الى سنتياجو
آه أيها الزنار الجار وياقطرة الأخشاب !
سأذهب الى سنتياجو .
يامعزف الجذوع الحية ، ايهاالتمساح ، يازهرة التبغ !
سأذهب الى سنتياجو
لقد قلت دوما انني سأذهب الى سنتياجو
في عربة من المياه السوداء
سأذهب الى سنتياجو
النسمة والكحول يصاحبان عجلاتي
سأذهب الى سنتياجو
ومرجاناتي وسط الغمام
سأذهب الى سنتياجو
البحر الغارق في الرمال
سأذهب الى سنتياجو
حرارة بيضاء ، وفاكهة ميتة

سأذهب الي سنتياجو

آه ياكوبا ، آه يامنحدر النهدة والطين !

سأذهب الى سنتياجو

ثم شارفت اقامته فى كوبا على نهايتها ، واستقل فى أواخر صيف ١٩٣٠ الباخرة الاسبانية ماركيز دى كومياس » عائدا الى اسبانيا ، بعد أن توقفت فى الطريق فى ميناء نيويورك حيث كان وداع الشاعر لأصدقائه هناك ٠

وهكذا فارق شاعرنا الأرض الأمريكية ، أرض العالم الجديد ، التى مثلت له تجربة كثيفة فى روحه وفى فنه ، ولكن المهم أيضا هو أنها قد أزالت عنه ذلك « الخدر العاطفى » ، ذلك الحزن والكآبة العميقين اللذين هاجماه طوال صيف وشتاء ١٩٢٨ ٠ وقد عاد فديريكو من رحلته سعيدا بها وأكثر ثقة فى نفسه وفى عمله ، مليئا بزخم جديد دفاق للعمل والحياة ٠



لاباراكا وفترة النضج المسرحى

وكعادة لوركا كل صيف ، قضى الصيف التالى لرحلته الأمريكية فى بلدته غرناطة ، يجتر تجاربه ، ويقضى أيامه ولياليه بين أهله وأصدقائه من الفنانين والشعراء • ثم عاد مع بداية الشتاء فى أواخر ١٩٣٠ الى مدريد لحضور عرض مسرحيته الجديدة « الاسكافية العجيبة » على مسرح « اسبانيول » تؤديها فرقة « كاراكول » وتمثل فيها الممثلة المشهورة « مرجريتا شيرجو » دور البطولة •

وهذه المسرحية ـ التى ترجمها الدكتور عبد الرحمن بدوى الى العربية ونشرت عام ١٩٦٤ ـ تمثل حلقة فى سلسلة مسرحياته الشعبية الفولكلورية ، وقد تصورها مؤلفها بوصفها « باليه » لا ينقصه الا الموسيقى • وقصتها تحكى عن صبية جميلة فى الثامنة عشر تتزوج اسكافيا هرما عمره ثلاثة وخمسون عاما ، فى احدى القرى الأندلسية • وتمتلىء حياة الزوجين بالشجار والنقار ، ولم ينجبا أطفالا • ويضحك منهما أهل القرية وينشدون الأغانى فى التهكم عليهما • وكانت الاسكافية تقضى نهارها تحلم بأراض قصية وحياة مختلفة عن التى تحياها ، وتهمل شئون بيتها • ويفيض الكيل بالزوج الهرم فيهرب من المنزل ومع غياب الزوج ، تتغير صورته فى عينى زوجته الحسناء ، فيبدو لها أنه كان أفضل زوج فى الدنيا ، وتطرد عنها الشبان الذين يخطبون ودها ، مفضلة أن تنتظر زوجها التى أصبحت تحب صورته وذكراه • ويعود الزوج متخفيا الى القرية ويعلم مدى ثبات زوجته على حبه ، فيكشف شخصيته آملا

أن يعيش فى هناء بعد ذلك مع الزوجة ، بيد أنها وقد عاد الزوج ، تعود الى حياة الشجار والنقار مع الاسكافى •

وهذه المسرحية خفيفة الروح والجو ، وتزخر بالأغانى الشعبية الأندلسية ، مما جعلها تنجح على المسرح ويقبلها الجمهور الاسبانى والأجنبى على حد سواء •

ورغم أن عام ١٩٣١ قد شهد أيضا صدور ديوان « قصيدة الغناء العميق » الذى يضم القصائد التى كان لوركا قد كتبها فى عام ١٩٢١ ثم نسيها فى أحد أدراج مكتبه بعد ذلك ، الا أن عرض المسرحية وصدور هذا الديوان ــ رغم نجاحها ــ قد غرقا فى الأحداث العظيمة التى شهدتها أسبانيا فى ذلك الربيع الملتهب ، ربيع عام ١٩٣١ وما تلاه • ذلك أنه بعد الحكم الدكتاتورى للبلاد على يد الجنرال « بريمو دى ريفييرا » ــ فى ظل الملكية والملك ــ والذى استمر من عام ١٩٢١ حتى بداية عام ١٩٣٠ ، لم يجد الملك بدا من تعيين حكومة تجرى انتخابات بلدية عامة ، أجريت بالفعل فى ١٢ ابريل ١٩٣١ • وفوجىء الملك والحكومة بنجاح معظم المرشـــحين المناهضين للملكية والداعين لقيام حكم جمهورى • وحين لم يبادر الجيش ولا الحرس المدنى الى اعلان ولائهما للملكية ، وجد الملك ــ ألفونسو الثالث عشر ــ أنه ليس أمامه الا أن يرحل الى المنفى ، حيث استقر هو وأسرته فى ايطاليا • وفى نفس يوم رحيل الملك ــ ١٤ ابريل ١٩٣١ ــ أعلنت الجمهورية فى اسبانيا • وبدأت الحياة الديمقراطية باجـــراء انتخـابات عامة فى يونية ١٩٣١ فاز فيها الجمهوريون والاشتراكيون والتقدميون بأغلبية ساحقة على الملكيين، وتشكلت على أثرها حكومة اشتراكية النزعة برئاسة «ألكالا زامورا» •• وقد دخل أستاذ لوركا وصديقه « فرناندو دى لوس ريوس » الحكومة الجـــديدة وزيرا للمعـــارف العمومية • وقد أعقبت تلك الأحداث صراعات خفية وعلنية بين مختلف طوائف الشعب الاسبانى، ظلت تعمق وتستفحل الى أن انتهت باندلاع حرب أهلية دامية كما سنرى بعد ذلك •

ولاشك أن تلك الأحداث التى بدأت تترى فى اسبانيا فى ربيع عام ١٩٣١ قد أثرت أعظم تأثير فى نفسية لوركا ، وألهبته حماسا لتقديم اسهاماته لخدمة ذلك القطاع من الشعب الذى يكن له أعظم حب ومودة : الفقراء والفلاحين والغجر · ولقد صارت عبارة صرح بها الشاعر لأحد الصحفين بعد ذلك فى أواخر عام ١٩٣٤ علما على تفكيره وانسانيته ، اذ قال : « فى هذاالعالم ، انا دائما ، وسأكون دائما ، فى صف الفقراء · سأكون دائما فى صف من لا يملكون شيئا بل هم محرومون حتى من طمأنينة العدم » ·

وقد دفعه هذا الاحساس الانسانى والاجتماعى الى التفكير بعد قليل من قيام الجمهورية فى مشروع ثقافى وهبه الكثير من فكره وجهده ووقته : انشاء مسرح جامعى متنقل من الهواه ، يطوف قرى اسبانيا ونجوعها فى كل الأنحاء لتقديم الأعمال المسرحية الاسبانية العظيمة ، من « مشهيات » « سرفانتس » صاحب « دون كيشوت » الى درامات « لوبى دى فيجا » و « كالديرون دى لاباركا » · وخلع لوركا على مسرحه اسم « لا باراكا » ، أى « الكوخ » بالاسبانية · ونالت الفكرة استحسان الوزير الجديد « فرناندو دى لوس ريوس » ـ الذى أمد المشروع بالاعتمادات المالية الضرورية ـ كما تحمس لها أيضا مجموعة من الشباب من طلبة الجامعة ، معظمهم من كلية الآداب ، من هواة المسرح والتمثيل · وتطوع عديد من أصدقاء لوركا من الفنانين والرسامين للمســاهمة بجهودهم فى تصميم الديكورات والعرائس للمسرحيات المختلفة · وأولى لوركا عنايته لكن صغيرة وكبيرة فى التحضير لتنفيذ المشروع الفنى الكبير ، من الاجراءات الادارية بكل أنواعها الى التفاصيل الفنية بوصفه مخرج المسرح فكان يدير حركة الممثلين وطريقة أدائهم ونطقهم ، والاضاءة ، والملابس ، والديكورات ·

وبدأت البروفات فى منتصــف عام ١٩٣٢ ، لتقود الى حفلة الافتتاح التى أقيمت فى ميدان « برغو دى أوســما » فى مقاطعة « صوريا » بتقديم عملين من « مشهيات » سرفانتس هما : « الحارسة الحريصة » و « كهف شلمنقة » ·

وتنقل مسرح « لاباراكا » فى عديد من المدن والقرى الاسبانية حيث كان يلقى حفاوة بالغة وتشجيعا عظيما · كان معظم جمهور النظارة من الناس الذين أحبهم لوركا دائما : الناس البسطاء ، العمال والفلاحون الذين يجدون فى ذلك المسرح الشعبى فرصة يلتقون فيها مع أدب بلادهم وفنها العريق · وكانت المسرحيات التى تقدم كلها من التراث الاسبانى فى عصره الذهبى ، ولكنها رصعت بعمل واحد حديث هو « تاريخ جندى » للمؤلف « راموز » ، الذى وضع موسيقاه الموسيقار الفرنسى الشهير « سترافنسكى » ويحكى « بابلو نيرودا » عن مدى اهتمام لوركا بخدمة مسرحه ، أنه عندما كان لوركا يشرف على اعداد الملابس والديكور لمسرحية «بيريبانيث» للوبى دى فيجا ، جاب كل بقاع مقاطعة « اكستريمادورا » وقراها ، الى أن عثر على ملابس حقيقية ترجع الى القرن السابع عشر ، كانت تحتفظ بها أسرات ريفية عريقة كأثر من آثار الأجداد وتوارثتها جيلا عن جيل ، وقد رضت باعارتها للوركا لاستخدامها فى مسرحه ، لأن خفته ولطفه ، كانا كفيلين بفتح جميع الأبواب أمامه » ·

ومع كل الوقت والجهد الذى بذلهما الشاعر فى خلق مسرحه والسير به قدما الى الأمام ، فان ذلك لم يشغله عن النشاط الأدبى والفنى الخاص به ، وعن متابعة زيارة أصدقائه والتردد على جلسات أهل الأدب والفن ، وكذلك عن القاء المحاضرات الأدبية فى محافل عدة قامت بانشائها الجمهورية الوليدة · وقد حملته واحدة من تلك المحاضرات الى أقليم « غاليسيا » الناضر المزهر الخضرة على الدوام فى شمالى غربى اسبانيا · وكانت حصيلة تلك الزيارة ست قصائد غاليسيه وضعها الشاعر رغم أنه كان يجهل هذه اللهجة المختلفة عن الاسبانية ، ولكن ايقاعاتها وموسيقيتها حملاه على أن يعبر عن نفسه بها · وقد طاف فى زيارته « الغاليسية » بالمدينتين الرئيسيتين هناك : « كورونيا » ، و « سنتياجو دى كومبوستيلا » · وفى الأخيرة ، زار قبر الشاعرة الاسبانية المشهورة « روساليا دى كاسترو » التى كان يغرم بشعرها ، ووضع باقة من الزهور هناك ·

وكان لوركا فى ذلك الوقت يكمل رائعته المسرحية : « عرس

الدم » ، وهى حلقة مستقلة من ثلاثية مسرحية اكتملت فيما بعد بمسرحيتى « يرما » و « بيت برناردا ألبا » • وقد افتتحت مسرحية « عرس الدم » فى ٨ من مارس ١٩٣٣ على مسرح « بياتريز » بمدريد، بحضور نجوم الفن والأدب والفكر الاسبانى ، ومنهم خاسنتو بنافنتى ، وميجيل دى أونامونو ، وأورتيجا اى جاسيت ، علاوة على أعضاء « جماعة ٢٧ الأدبية بكاملهم • ولاقت المسرحية نجاحا فوريا ساحقا ، ولا غرو فهى قد تكامل فيها الفن المسرحى ، والشعر الغنائى الذى يقوم بدوره فى بناء درامى متكامل وشخصيات ورموز مسبوكة • ويدور موضوع المسرحية – التى ترجمت الى العربية ثلاث مرات – حول الصراع على فتاة يحبها شابان ينتميان الى عائلتين متعاديتين • وتقبل الفتاة احدهما زوجا نكاية فى الآخر الذى تحبه لأنه تزوج بفتاة أخرى • وفى ليلة عرس الفتاة ، تهرب مع حبيبها المتزوج ليوناردو • ويطارد العريس وأهله العاشقين فى دروب احدى الغابات الى أن يعثروا عليهما ، فتدور معركة تنتهى بمقتل الشابين المتنافسين ، ولم يبق الا النسوة يذرفن الدموع على مصيرهن •

جو المسرحية أندلسى صرف ، يزخر بالعواطف المشبوبة والمنازعات والصراعات العنيفة ، كما أنها تمتلىء بالأغانى الشعبية التى تدور حول الحب والزواج والأطفال • وقد لقيت هذه المسرحية نجاحا هائلا لما صورته من جوانب الحياة الأسبانية الأصيلة ، وقابلها النقاد المسرحيين بحرارة شديدة •

وفى ربيع نفس العام – ١٩٣٣ – بتعاون الشاعر مع صديقه « بورا أوسيلاى » فى انشاء « نوادى الثقافة المسرحية » ، بهدف اقامة مسرح اسبانى يقف أمام الموجة التى انتشرت فى اسبانيا من المسرحيات المتبذلة التى تعتمد على تقديم الأغانى والاستعراضات دون أى هدف فنى • وكانت الفكرة تقوم على انشاء مثل تلك النوادى فى كبريات المدن الاسبانية • وبدأ نادى مدريد عمله بتقديم عملين من أعمال لوركا هما « الاسكافية العجيبة » و « غرام دون برلمبلين

وبليزا فى حديقته » التى كان قد كتبها فى عام ١٩٢٨ ٠ ومثلت فى العملين « مرجريتا شيرجو » وقدما على مسرح « اسبانيول » فى ٥ ابريل ٠ ورغم نجاح تقديم هاتين المسرحيتين عند عرضهما فى مدريد الا أن النجاح الهائل الذى كانت تلاقيه مسرحية « عرس الدم » طغى عليهما ٠

وما ان يحل صيف ١٩٣٣ ، حتى يكون لوركا غارقا حتى اذنيه فى ثلاثة أعمال مسرحية جديدة : « الجمهور » ، الذى يقول انها لن تمثل لأنها « غير قابلة للتمثيل على المسرح أبدا » و « عندما تمر خمس سنوات » وهى مسرحية تدور حول فكرة الزمن ، و «يرما» وهى الحلقة الثانية فى الثلاثية الدرامية الأندلسية ٠ ويرجع الى تلك الفترة تعرفه وصداقته ، فى احدى رحلاته مع مسرح « لاباراكا » فى شمال اسبانيا ، « بمارسيل أو أوكلير » الكاتبة الفرنسية التى ترجمت « عرس الدم » الى الفرنسية ، ثم كتبت بعد ذلك احدى أدق وأكمل سيرة فنية لحياة الشاعر بعنوان « حياة لوركا وموته » ٠

وفى أغسطس ، يغلق « لاباراكا » أبوابه ونشاطه فى أجازة صيفية ثم يقبل لوركا فى سبمتبر دعوة من جمعية أصدقاء الفن فى « الأرجنتين » لزيارتها والقاء عدة محاضرات هناك ، ولحضور عروض « عرس الدم » التى تقدمها فرقة الممثلة الأرجنتينية المشهورة « لولا ممبريفس » ٠ ويصل لوركا الى ميناء « بوينس آيرس » فى ١٣ أكتوبر ١٩٣٣ ، ويقضى فى العاصمة الارجنتينية أياما مليئة بالنشاطات الأدبية والفنية ، من محاضـــرات الى أحاديث اذاعية وعروض مسرحية وحفلات تكريم ٠ وتعرض على مسرح « أفنيدا » ببوينس آيرس مسرحيات لوركا « عرس الدم » و « الاســـكافية العجيبة » و « ماريانا بينيدا » ، ويشترك هو نفسه فى القاء مقدمة « الاسكافية العجيبة » ٠ وفى أواخر يناير ١٩٣٤ ، يسافر الشاعر الى « منتفيديو » عاصمة الأوروجواى المجاورة للارجنتين ، حيث يلقى عدة محاضـــرات هناك ، ويســـتقبله ســـفير اســـبانيا فى الأوروجواى ٠

وبعد عودة لوركا الى الارجنتين ، ينظم نادى القلم الدولى مهرجانا فى ذكرى شاعر « نيكاراجوا » « روبين داريو » ، رائد الشعر الاسبانى الحديث الذى ترك بصمات واضحة فى شعراء جماعتى ٩٨ و ٢٧ · ويشترك فى المهرجان لوركا والشاعر اشيلى العظيم « بابلو نيرودا » ، حيث يلقيان معا محاضرة ثنائية عن « داريو » · وكانت هذه أول مرة يلتقى فيها الشاعران الكبيران لوركا ونيرودا ، حيث ربطت بينهما صداقة حميمة استمرت حتى موت لوركا فى عام ١٩٣٦ وكتابة نيرودا مرثية شهيرة عنه · وقد ترسخت تلك الصداقة حين انتقل « نيرودا » بعد ذلك فى يوليو ١٩٣٤ قنصلا لبلاده فى مدريد ، وأصبحت الندوات والتجمعات الأدبية قلما تخلو من هذين البلبلين المغردين : لوركا الذى يتلو أشعاره الشعبية ويغنى أغانى الفولكلور والفلامنكو على البيانو ، ونيرودا يقرأ بعض قصائده الجديدة التى لم تنشر بعد · وكان أكثر شىء لاحظه أصدقاء لوركا عليه عند عودته من أمريكا اللاتينية الى اسبانيا فى أبريل ٣٤ هو انبهاره بموهبة الشاعر اشيلى بيرودا ، فكان خير مرحب به وبأعماله لدى الشعراء والكتاب الاسبان ، مما مهد له الطريق بعد ذلك عند وصوله الى مدريد ·



فاجعة مصـــارع الثيران

مع بداية فصل الصيف من عام ١٩٢٤ ، كان شاعرنا يضع لمساته الأخيرة فى مسرحيته الجديدة : يرما ، متنقلا من موضـــع لآخر مع مسرح « لاباراكا » · وحين كان المسرح يقدم عروضه فى مدينة « سنتندير » فى شمال اسبانيا ، يصله النبأ الفاجع باصابة صديقه الحميم « اجناثيو سانشز ميخياس » مصارع الثيران العظيم، فى حلبة المصارعة فى مدريد يوم ١١ اغسطس · ويتأثر لوركا تأثرا عظيما بهذا الحادث ، الذى أودى بحياة صديقه فى النهاية ، ويجد نفسه مرة أخرى وجها لوجه أمام الموضوع الذى ما فتىء يناوشه منذ زمن : موضوع الموت ·

وقد أشار كثير من النقاد الى ذلك الموضوع الذى شغل بال الشاعر كثيرا وتبدى فى كثير من « تيمات » قصائده وصـــوره الشعرية · فكما ذكر بدرو ساليناس فى مقالة له عن موضوع الموت لدى لوركا ، يكمن « الموت » فى قصـــائده ، فى الأعمال الطبيعية العادية ، وفى الأماكن التى لا ينتظـــره أحد فيها · وما ان يدخل القارىء الى عالم لوركا الشعرى فى قصـــائده ومواويله وحكاياه ومسرحياته ، حتى يشعر أنه ينغمر فى جو غريب · ان المناظر التى يقدمها شعبية عادية ، ولكن أجواءها تعمر بالنذر والمخاطر الخفية ، وتعبرها الاستعارات والتشبيهات الشعرية كطيور الشؤم · ومصير كل الشخصيات التى يخلقها لوركا ــ ســـواء فى شـــعره أو فى مسرحياته ــ مآلها الى الموت ، فالمؤلف يخلقها ويضعها فى طريق لا يؤدى بها الا الى الموت ، ويتبدى هذا أكثر ما يتبدى فى ثلاثيته المسرحية : عرس الدم ــ يرما ــ بيت برناردا ألبا · وهذا ما يدعو

الى القول بأن رؤيا الحياة والانسان لدى لوركا قد تأسست على فكرة الموت ٠ والشاعر فى هوسه بهذا الموضوع وتغلغله فيه انما يعكس التسليم بأهمية الموت ومكانه فى حياة الاسـبان عموما ، فالشعب الاسبانى هو من أكثر شعوب العالم قربا من عقيدة الموت ، التى تتبدى — على مرالعصور — فى فنونه من تصوير ونحت وأعمال قصصية ومسرحية تدور حول هذا الموضوع ٠ ولا عجب أيضا أن كانت الرياضة الأولى لدى الاسبان — وهى ترجع الى ما قبل الفتح العربى الاسلامى — هى رياضة مصارعة الثيران التى ان هى الا تمثيل حى للصراع بين الحياة والموت ، ينتهى أحيانا بموت المصارع، وحتما بموت الثور ٠٠

لذلك كانت أشمل مواجهة فنية بين لوركا وبين فكرة الموت تتصل بالقصيدة التى سطرها غداة وفاة صديقة مصارع الثيران ٠٠ وكان « سانشز ميخياس » قد اعتزل حلبة المصارعة بعد نجاح باهر ، ولكن هيامه بهذه الرياضة — رياضة الرجال والشجاعة ومواجهة القدر — دفعته الى العودة الى مضمارها وقد بلغ من العمر الثالثة والأربعين ، وهى سن عالية يعتزل فيها المصارعون عادة عملهم ٠٠ وبعد حفلات عديدة ناجحة ، يطلب منه أحد زملائه المصارعين أن يحل محله فى مصارعة بمدريد ، وهى التى انتهت باصابته بجرح بليغ من قرن ثور أسود ضخم ، صارع المصارع بعده الموت لمدة يومين ثم قضى فى ١٣ أغسطس ضحية حبه لهذه الرياضة ولشجاعته أمام الثيران ٠

ويصيب لوركا أحزانه على صديقه فى مرثية صادقة من أربعة أقسام كتبها كلها فى أربعة أيام ، ويتناقلها الأصدقاء والشعراء قبل أن تطبع فى النهاية فى كتيب شعرى وحدها مع رسوم بريشة «خوسيه كاباييرو » وهذه المرثية من أشهر قصائد لوركا الطويلة ، ونقف جنبا الى جنب مع المراثى الشعرية الخالدة ، مثل المرثية التى كتبها « توماس جراى » ، ومرثية « أدونيس » التى سطرها شيللى فى رثاء « جون كيتس » وغيرهما ٠ وقد نجح لوركا فى تصوير جو مصارعة

الثيران مقرونا بنفسية المصارع والجمهور ، الى حد يجعل القارىء يدخل مباشرة الى جو الصراع الأبدى بين المصارع والثور ، بين الانسان والقدر ، الذى يجعله دائما فى مواجهة الموت ، الذى يأتى دائما فى النهاية :

١ ـ الجرح والموت

فى الخامسة من بعد الظهر
كانت الساعة الخامسة تماما بعد الظهر
أحضر صبى الملاءة البيضـــاء
فى الخامسة من بعد الظهر
وأعدت سلة الليمون
فى الخامسة من بعد الظهر
وما تبقى هو الموت ، والموت وحده
فى الخامسة من بعد الظهر
وأطارت الريح القطن
فى الخامسة من بعد الظهر
ونثر الأوكسيد الزجاج والنيكل
فى الخامسة من بعد الظهر
والحمامة تتصارع الآن مع الفهد
فى الخامسة من بعد الظهر
وثمة فخذ ذو قرن وحيد
فى الخامسة من بعد الظهر
واجراس تقرع انغاما محمومة

فى الخامسة من بعد الظهر
أجراس زرنيخية ودخان
فى الخامسة من بعد الظهر
والجماعات صامتة فى كل الأركان
فى الخامسة من بعد الظهر
والثور وحده هو سيد الموقف
فى الخامسة من بعد الظهر
حين ظهر شريان الثلوج
فى الخامسة من بعد الظهر
حين غطيت الحلبة باليود
فى الخامسة من بعد الظهر
وأفرخ الموت بيضاً فى الجراح
فى الخامسة من بعد الظهر
فى الخامسة من بعد الظهر
فى الخامسة تماماً من بعد الظهر
مرقده كفن يجرى على عجلات
فى الخامسة من بعد الظهر
وتدق فى أذنيه عظام ومسامير
فى الخامسة من بعد الظهر
والثور يخور فى جبهته
فى الخامسة من بعد الظهر
ويملأ الأسى الغرفة بألوان قوس قزح
فى الخامسة من بعد الظهر
وهاهى الغرغرينة تأتى من بعيد
فى الخامسة من بعد الظهر
وفى عجيزته الخضراء بوق من زنابق

فى الخامسة من بعد الظهر
واحترقت الجراح كالشموس
فى الخامسة من بعد الظهر
وكانت الجماهير تحطم النوافذ
فى الخامسة من بعد الظهر
آه ...
يالتلك الخامسة من بعدالظهر الفظيعة !
كانت الخامسة فى كل الساعات !
كانت ظلال الخامسة من بعد الظهر !

٢ ـ الدم المراق

لا أريد أن أراه !
قل للقمر ان يطلع
فلست اريد ان أرى دم اجناثيو على الرمال
لا اريد ان اراه !
القمر ساطع منير
جواد السحب الداكنة
وحلبة المصارعة الحلمية الرمادية
واعواد الصفصاف فى المدرجات .
لا اريد أن أراه !
ذكرياتى تحترق
أنبىء الياسمين ببياضه الصغير

لا أريد أن أراه !
بقرة العالم القديم
مرت بلسانها الخرين
على خيط من الدم المراق على الرمال
وثيران « جيساندو »
نصفها موت ونصفها حجر ،
تخور كقرنين
انهكهما التطواف فى الأرض
كلا ،
لا أريد أن أراه !

يصعد اجناثيو الدرجات وموته على كتفيه
كان ينشد الفجر
الفجر الذى لم يكن له وجود
كان ينشد بروفيله الواثق
ويملأه الحلم بالعتمات
كان ينشد جسده الجميل
فصادف دمه المفتوح
لا تطلبوا منى أن أراه !
لا أريد أن أسمع الفيض يخور ...
فيض يضىء الدرجات
ويفيض على المخمل القطنى
وجلود الجماهير الملهوفة .
من يهيب بى أن أتقدم !
لا تطلبوا منى أن أراه !

لم تنغلق عيناه حين رأى القرنين يقتربان
ولكن الأمهات المذعورات رفعن رؤوسهن
وارتفعت نسمة من الأصوات الخفية
من بين حظائر الثيران
وصاحت حظائر الضباب الشاحب
فى وجه الثيران السماوية ٠
لم يكن ثمة أمير فى « أشبيلية » يضارعه
ولا سيف يضارع سيفه
ولا قلب صادق كقلبه
مدهش القفزة كالنهر الأسود
مرمرى الجسد بحصافة بارعة
ورأسه مكلل بأجواء روما أندلسية
وعلى ابتسامة ياسمينة من اللماحة والذكاء
ياله من مصارع فى الحلبة عظيم !
ياله من جبلى قح فى وسط الجبال !
يالظرفه مع سنبلات القمح !
يالصلابته مع الجراح !
يالرقته مع الندى !
يالبهائه فى المهرجانات !
يالروعته فى سهام الظلمة الأخيرة !
ولكن ٠٠٠
هاهو نام الآن نومة أبدية ،
الآن تفتح الطحالب والحشائش
زهرة جمجمته بأصابع واثقة
والآن يأتى دمه يغنى

يغنى فى المستنقعات والمروج
ينزلق على القرون المنحدرة
يتعثر فى الضباب دونما روح
يتعثر فوق آلاف الخفوف
كاللسان الطويل المظلم الحزين
وتكونت بركة من أسى
بالقرب من نهر « الوادى الكبير »
المليء بالأنجم
آه يا جدار اسبانيا الأبيض !
آه ياثور الأسى الأسود !
آه يادماء « اجناثيو » المتجمدة !
آه يابلبل عروقه الصداح !
كلا ،
لا أريد أن أراه !
ليس هناك من قدح يحتويه
ليس هناك من طيور تلعقه
ليس هناك من صقيع ضوء يبرده
ليس هناك من أغانى ولا طوفان من الزنابق
ليس هناك من زجاج يغطيه بالفضة .
لا ...
لن أراه !

٣ ـ الجسد المسجى

قطعة الحجر
هى الجبهة التى تلوح عليها الأحلام
وقد حرمت من المياه الملتوية والأرزات المتجمدة ·
قطعة الحجر
كتف يحمل الزمان
مع أشجار الدموع وأشرطة الكواكب
لقد رأيت شابيب رمادية تهرع نحو الموجات
ترفع ذراعيها الرقيقين الملغزين
كيما تصد عنها أسر الحجر الممدد
الذى يفكك أطرافها ولا يتشرب الدماء ·

الحجر يجمع الحبوب والسحب
يجمع هياكل الحدآت وذئاب الشفق
ولكنه لا يخرج صوتا ولا بللورات ولا نيرانا
بال حلبات مصارعة وحلبات مصارعة
ومزيدا من حلبات المصارعة
بدون جدران ·

الآن يرقد « اجناثيو » النبيل على الحجر ·
لقد انتهى كل شىء · ماذا يحدث ؟
انظروا الى جسده !
لقد غطاه الموت بالكبريت الشاحب
وتوجه براس « منياطور » أسود

لقد انتهى كل شيء
هاهو المطر يتسرب الى فمه
ويهدر الهواء صدره الساقط فى نزوه
ويدفىء الحب نفسه على قطعان الثيران
وقد أغرقته دموع الثلوج

ماذا يقولون ؟
ويهبط صمت مريع
نحن هنا مع جسد مسجى يذوى
مع جسد نبيل كان له بلابله الشادية
نراه يمتلىء بالثقوب التى لا قاع لها .

من ذا الذى يطوى الكفن ؟
ليس صحيحا ما يروون .
ليس هناك من يغنى
أو يبكى فى الأركان
أو ينبجس جراحه
أو يخيف الثعبان
أريد هنا أن ترى عيناى المستديرتان
جسده الذى لا راحة له .

أريد هنا أن ارى الرجال ذوى الأصوات القوية
هؤلاء الذين يصطدمون بالجياد
ويسيطرون على الأنهار
هؤلاء الرجال الذين تصلصل هياكلهم
والذين يغنون بأفواه ملؤها الشمس وحجر الصوان

أريد هنا أن أراهم
أمام هذا الحجر
أمام هذا الجسد ذى الأعنة المحطومة
أريد أن يبينوا لى رثاء كالنهر
بضبابات عذبة وشطآن منحدرة
لتحمل جسد « اجناثيو »
ويخفوه قبل أن يسمع خوار الثيرآن المزدوج
فليذب فى حلبة القمر الدائرية
التى تتخفى فى شبابها بالثور الحزين الهادىء .
فليذب فى أستار الليل
دون أغانى الأسماك ،
فى أيكات الدخان المتجمد البيضاء .

لا تغطوا وجهه بالمناديل !
فليتعود على الموت الذى يحمله .
اذهب يا « اجناثيو »
ولتنس الخوارات المحمومة
نم
حلق عاليا
اســـــترح
فحتى البحار تموت !

٤ ـ روح غائبـة

الثور لا يعرفك
ولا شجرة التين
ولا جياد منزلك ولا غلاته ٠
الطفل لا يعرفك
ولا الأصائل
لأنك قد مت الى الأبد

قطعة الحجر لا تعرفك
ولا قماش الساتان الذى يلفك
ذكرياتك الخرساء لا تعرفك
لأنك قد مت الى الأبد ٠

سيأتى الخريف بأبواق الرعاة
بأعنابه الضبابية وتلاله المتجمعة
ولكن لن يريد أحد أن يطل فى عينيك
لأنك قد مت الى الأبد

لأنك قد مت الى الأبد
مثل كل موتى الأرض الآخرين
مثل كل الموتى المنسيين
فى كومة الكلاب الغامضة ٠

لا أحد يعرفك ،
لا ٠ ولكنى أغنى لك

أغنى لخلقاء وجهك وسماحتك
لتضج فهمك النبيل
لشهيتك للموت ومذاق فمه
للحزن الدفين فى بهجتك الجسور ٠
لن يولد أندلسى فى مثل نبالتك
أزمانا طويلة
ولا فى ثراء مخاطراتك
أغنى لهذه الجلالة بكلمات كالأنين
وأذكر نسمة حزينة هفت بين أشجار الزيتون ٠

ومضى لوركا بعد فراغه من وضع قصيدة مصارع الثيران ، يعمل فى مسرحية جديدة هى «الآنسة روزيتا العانس أو لغة الزهور» ويشرف على اعداد مسرحية « يرما » للعرض على المسرح ٠ ويبدأ عرض تلك المسرحية يوم ٢٩ ديسمبر ١٩٣٤ فى المسرح الاسبانى بمدريد ، بفرقة الممثلة « مرجريتا شيرجو » ٠

وفى مسرحية « يرما » ــ كما فى سابقتها « عرس الدم » ــ يعالج الشاعر موضوعا ريفيا وبطلها غير المنظور هو جو الاختناق والحصر والحسد الذى كان يسود حياة الريف الاسبانى أيامها ــ وبطلة المسرحية ــ يرما ــ تعيش مأساة تتمثل فى عقم زوجها . وينشأ الصراع الدرامى من الزوج الذى لايرى فى زوجته سوى الأنثى التى تشبع رغبته ، ومن يرما التى لا ترى فيه الا الأب الذى يجب أن يهبها ابنا ٠ وتتفاعل عواطف الزوجة التى تحلم بالابن من احساسها الدينى الذى يحملها على الامانة والاخلاص بين الزوجيين ، فهى لاتحب أن تخون زوجها لتشبع نهمها الى الانجاب ، وتفضل فى النهاية أن تقتل زوجها العقيم ، فى مشهد بلغ ذروته من العنصر الدرامى العنيف ، اذ نرى فيه مأساة حياتها التى ترغب فى انهائها بانهاء حياته ٠ وهى اذ تقتله فانما تقتل نفسها روحيا ورمزيا فى نفس الوقت ، اذ انها بقتله تقتل كل أمل لها فى الانجاب الذى تراه هو هدف حياتها وسبب وجودها ٠

ومســــرحية يرما هى أول تراجيديا للمؤلف تقوم على قاعدة عريضة من الواقعية الدرامية · فبينما يسيطر على شخصيات «عرس الدم » شعور مشترك بالمشاطرة فى قدر تراجيدى ، يقع كل العبء التراجيدى فى« يرما » على شخصية واحدة تتحمله وحدها ، وهى البطلة يرما ·· ويرى الناقد الأمريكى « أدوين هونيج » أن « يرما » هى أعظم انجاز فى مسرح لوركا كله من الناحية الأخلاقية والدرامية على حد سواء وأن شخصية « يرما » ترتفع من مجرد رمز لمشكلة انسانية الى تجسيد حى لشخصية تراجيدية لها كل الأبعاد الدرامية المطلوبة ·

وغداة الاحتفال بمرور مائة ليلة على عرض المسرحية ، يصرح لوركا لأحد الصــــحفيين بحديث يشكل الآن لغزا أدبيا فى حيــاة الشاعر ، اذ أنه يقول انه قد انتهى تقريبا من الجـــزء الثالث من الثلاثية الدرامية وهو باسم « دمار سدوم »· ويقفز الآن سؤال عن ذلك العمل المسرحى ، اذ أن لوركا لم يقرأه على أحد من أصدقائه ، كما أنه لم يخلف وراءه أى مخطوط يحمل ذلك الاسم ، فهل ياترى كان يلمح عند ذكره للجزء الثالث الى مسرحية « بيت برناردا ألبا »، التى تعد بالفعل الحلقة الثالثة فى ثلاثيته الأندلسية ، أم أنه كان يقصد به عملا آخر مفقوداً الآن ؟ وثمة احتمال آخر ، وهو أن ذلك العمل كان لايزال مجرد فكرة فى ذهن الكاتب ، حمله حماســـه المعروف عنه الى الاعلان عن قرب انتهائه منه · ذلك أننا نجده يصرح فى حديث له نشر فى مجلة « الصوت » فى ١٨ فبراير ١٩٣٥ أنه يخطط لعديد من « المسرحيات الدرامية ذات الطابع الانســـانى والاجتماعى ، وثمة مسرحية منها تناهض الحرب » · كما انه يتحدث أيضا عن مشروع عمل أدبى آخر عن القديسة الصوفية « سانتا تيريزا » · غير أن الوقت لم يتح له ولا المزيد من العمر كيما يحقق تلك المشروعات الأدبية · وفى نفس تلك المقابلة الصحفية ، نجده يقول عن مهنته : « أحيانا ، حين أرى مايحدث فى الدنيا ، أتساءل : لماذا أكتب ؟ ولكن ·· يجب الاستمرار فى العمل ، والمضى فيه قدما · العمل ، ومد يد المساعدة الى من يستحق · العمل حتى ولو ظن المرء

أنه يعمل بلا طائل · العمل كشكل من أشكال الاحتجاج · ذلك أنه يقيم العمل ، فليس أمام المرء الا أن يصرخ كل يوم عند الاستيقاظ من النوم ، فى عالم ملىء بالظلم والبؤس من كل شكل ونوع : أنى أحتج ! أنى أحتج ! انى احتج ! » ·

وتزخر المسارح الاسبانية فى ربيع عام ١٩٣٥ بمسـرحيات لوركا المختلفة ، ويجد الشـاعر نفسه وفنه يعود عليه لأول مرة بالكسب المادى الذى يفيض عن حاجته · ولكنه كان ينفق كل مايصل الى يده من مال · وكان يراوده حلم لم يتمكن آخر الأمر من تحقيقه وهو أن يكون له بيت خاص به ، يشيده ويؤثثه على ذوقه ، يكون مواجها للبحر الأبيض فى شاطىء مالقة · بيد أنه يظل قاطنا شقته الجميلة ، ١٠٢ شارع القلعة بمدريد ، التى تغمرها الشمس ، فى طابق عال ، وذات شرفات على الجانبين ، حيث كان يعيش سعيدا ، يستقبل زواره من الأدباء والفنانين بالبيجامة صيفا وبالروب دى شامبر شتاء !

وتعبر شهرة لوركا حدود العالم الاسبانى الى فرنسا وانجلترا ، حيث يذيع راديو باريس ترجمة لمسرحية يرما ، وتصـدر ترجمة انجليزية لمسرحية « عرس الدم » تحت عنوان Bitter Oleander

وزمانه ، فى عام ١٨٨٥ ، ثم الشخصيات الأسـاسية فى المسرحية : العم ، الذى يهتم باستنبات الورود فى الخيمة الزجاجية التى أنشأها فى منزله ، والعمة التى تدير شئون المنزل بمساعدة المدبرة التى تعلق على كل ما يحدث من حولها · ثم يتعرف القارىء على روزيتا ، وعلى خطيبها الذى يشكل عنصر المأساة ، اذ يضطر الى السفر الى أمريكا الجنوبية تنفيذا لمطلب أبيه كيما يساعده فى أعماله هناك ، الا أنه يعد العمة وروزيتا نفسها بالعودة سريعا لاتمام الزواج · وفى الفصل الثانى ، يكون قد مر خمس عشرة سنة ، لم تغير من روزيتا الا مظهرها الخارجى ، ولكنها لاتزال تنتظر خطيبها المسافر · وقد توقف الزمن بالنسبة اليها عند اللحظة التى سافر فيها الخطيب ، ولم تعد تعيش الا فى فكرة حضوره للزواج منها ،

وتمضى فى ترتيب أمور العرس والاعداد له . وينتهى الفصل بوصول خطاب من الخطيب بعدم استطاعته الحضور ، وانه لذلك يعرض استعداده لعقد قرانه على روزيتا « بالتوكيل » الى حين حضوره . ويبدأ الفصل الثالث بعد مرور عشر سنوات أخرى ، والوقت خريف موحش ، ومازالت روزيتا ترتدى ملابس وردية وتتابع الأزياء الحديثة . بيد أنها تعرف جيدا أن الشباب قد ولى من بين يديها ، والخطيب لم يتزوجها بالتوكيل أو بغيره ، ولم يعد ولن يعود أبدا .. وفى هذا الفصل تعلم أن العم قد مات وأن العمة والمديرة قد نالت منهما الشيخوخة ، وهما يتحسران على مصير روزيتا ، فقد علمتا منذ شهور فقط أنه قد تزوج من امرأة ثرية فى أمريكا الجنوبية منذ ثمانى سنوات ، وهما قد أخفيا ذلك عن روزيتا ثم نكتشف أنها تعلم ذلك من قبل . وتطلق روزيتا كل احاسيسها بالاحباط واليأس فى حديث طويل الى عمتها وتعترف لها بأنها كانت تعلم كل شىء عن زواج الخطيب ، وتصور نفسها وقد توقف الزمن بالنسبة لها بينما صديقاتها يتزوجن وينجبن أطفالا يزورونها ويناديونها بالآنسة روزيتا . ويخل المنزل أطلالا ، فقد كان العم قد ارتهنه قبل وفاته فلا مفر من بيعه . ويخرج سكانه تحت جنح الظلام بينما الريح يعصف كأنما يشارك روزيتا حزنها وقنوطها .

وهذه المسرحية هى أشد مسرحيات لوركا رقة وشاعرية ، نظرا لموضوعها الرومانسى الحزين ، ويذكر ويساهم لوركا فى أول عدد من المجلة الأدبية التى يصدرها « بابلو نيرودا » فى مدريد تحت اسم « فرس الشعر الأخضر » بقصيدة من القصائد التى نشرت فيما بعد فى ديوان « شاعر فى نيويورك » ، وعنوانها « ليلية الفراغ » . ثم ينتقل الشاعر فى خريف ١٩٣٥ الى برشلونة حيث يحضر افتتاح مسرحية « الآنسة روزيتا العانس » التى قدمتها فرقة « مرجريتا شيرجو » هناك . ويشارك أثناء وجوده فى برشلونه فى عديد من المهرجانات الفنية والأدبية ، منها مظاهرة فنية تأييدا للسجناء السياسيين ، ومهرجان لتكريم ذكرى الموسيقار الاسبانى الشهير « اسحق البنيتز » ، حيث دبج الشاعر قصيدة باسمه قرأها أمام مقبرته فى تل « موتخويش » ببرشلونة .

ومسرحية « الآنسة روزيتا العانس » أول مســـرحية للوركا تحمل عنوانا اضافيا ، هو « لغة الزهور » ٠ وقد وصفها مؤلفها بأنها « قصيدة غرناطية عن عقد التسعينات (من القرن التاسع عشر) تنقسم الى عدة بساتين وبها مناظر غناء ورقص » ٠ والمسرحية من ثلاثة فصول ، يقدم لنا الفصل الأول مكان الحدث وهو غرناطة ، جو الكآبة والشجن فيها بجو مسرحيات « تشيكوف » خاصة « بستان الكرز » ٠

وكانت « الآنسة روزيتا العانس » هى آخر مسرحية تعرض على المسرح فى حياة مؤلفها ذلك أن مسرحياته الأخرى ، ومنها « بيت برناردا ألبا » لم تعرض لأول مرة الا فى عام ١٩٤٥ ، فى المكسيك ، كما سنرى بعد ذلك ٠



١٩٣٦

ويحل عام ١٩٣٦ ، وهو عام حاسم فى تاريخ اسبانيا وفى حياة شاعرنا ، اذ شهدت البلاد فورانا هائلا زاخرا بالأحداث الجسام التى أدت فى النهاية الى مصرع الشاعر . ولما كانت « قضية » مصرع لوركا قد نالت من الاهتمام والبحث قدر ما ناله شعره ومسرحه ، فسوف نعرض بشىء من التفصيل للأحداث التى أدت الى تلك النهاية .

فى ربيع ١٩٣٦ ، كان قد مر على الجمهورية الاسبانية الوليدة خمسة أعوام شهدت تقلبات عديدة . فمنذ ولادة الجمهورية عام ١٩٣١ وحتى عام ١٩٣٣ ، تولى الحكم برلمان اشتراكى يسارى ولكن انتخابات عام ١٩٣٣ أعادت القوى الملكية التقليدية المحافظة الى الحكم مرة أخرى فى ظل الجمهورية . وكان سبب انتصار القوى المحافظة راجعا الى ثلاثة عوامل جوهرية : أولها ، أن قانونا صدر عام ١٩٣١ منح المرأة حق الانتخاب لأول مرة فى اسبانيا ، فصوتت معظم النساء الكاثوليكيات المحافظات ضد القوى اليسارية التقدمية . وثانيها ، أن الانتخابات كانت تتم عن طريق نظام « القوائم » للمرشحين ، وكل دائرة انتخابية لها عدد محدد سلفا من المقاعد لكل من الأغلبية والأقلية . ففى دائرة مدريد مثلا ، كان هناك ١٧ مقعدا ، منها ١٣ للأغلبية و٤ للأقلية ، وفى غرناطة ، ١٠ مقاعد للأغلبية و ٣ مقاعد للأقلية ، وهكذا فى كل الدوائر . وهذا يعنى أنه بالرغم من حصول أحزاب الأقلية على أعداد كبيرة من الأصوات ، الا أنها لا تمثل فى البرلمان الا بتلك المقاعد المحجوزة لها سلفا وثالث تلك العوامل ، أن أحزاب المعارضة ـ من ملكيين ومحافظين ومتدينين ـ

قد تعلمت جيدا من درس أنتخابات ۱۹۳۱ ، ووحدت من صفوفها في الانتخابات الجديدة برغم الخلافات الشديدة التى تقوم فيما بينها في داخل الاطار المحافظ ، فى حين أن الأحزاب الجمهورية والتقدمية لم تدخل تلك الانتخابات كجبهة متحدة ، بل كأحزاب متصارعة متنافسة ، مما جعلها تخسرها • وعمدت حكومة عام ۱۹۳۳ المحافظة الى هدم معظم ما بنته الحكومة الجمهورية الأولى ، مما أثار حفيظة الطبقات العمالية والفقيرة في طول البلاد وعرضها ، وأدى ذلك - ضمن جملة أمور - الى حدوث تمرد خطير قام به عمال مناجم الفحم في اقليم « أشتورياس » بشمال اسبانيا ، قامت الحكومة المحافظة بقمعه في شدة وقسوة وصرامة أثارت مزيدا من السخط عليها • وظل الموقف متوترا على هذا النحو بين شد وجذب الى أن جرت انتخابات جديدة في فبراير ١٩٣٦ انتصرت فيها الجبهة الشعبية المكونة من اتحاد الأحزاب التقدمية ، انتصارا ساحقا تحت ظل نظام القائمة السابق الاشارة اليه • فرغم أن عدد الأصوات التى حصلت عليها الجبهة الشعبية هو ٤٧٠٠٠٠٠ وأصوات الجبهة الوطنية المحافظة هو ٣٩٩٧٠٠٠ ، الا أن عدد المقاعد التى منحت للفائز هى مقاعد الأغلبية المطلقة •

وفى الفترة الواقعة بين تاريخ هذه الانتخابات فى فبراير ١٩٣٦ ، و ١٨ يولية ١٩٣٦ تاريخ الانقلاب العسكرى الملكى المحافظ ، كانت البلاد بطولها وعرضها مسرحا لحوادث التوتر بين الجبهتين الرئيسيتين : التقدمية والمحافظة • وكان يمثل التقدميين المنظمتان العماليتان الرئيسيتان وهما CNT أى« الاتحاد القومى للعمل » وهى ذات ميول فوضوية ، و ,UGT أى « الاتحاد العام للعمال » وهو حزب اشتراكى ، ثم الشيوعيون • أما فى حزب اليمين المحافظ : فقد برز حزبان رئيسيان عملا جنبا الى جنب رغم العداء والخلاف الدفينين بينهما : « الفالانج » أى الكتائب التى أسسها عام ١٩٣٣ « خوسيه أنطونيو بريمو دى ريفيرا » ابن دكتاتور أسبانيا السابق ، وحزب « سيدا » بقيادة « خيبل روبليس » الذى كان يركز على العنصر الدينى ويبرزه •

وما ان تولت الحكومة التقدمية الحكم بعد انتخابات فبراير ١٩٣٦ حتى عمدت الى العودة بالبلاد الى الوضع الاشتراكى والقوانين الاشتراكية • ولكن ذلك بالطبع لم يرض الجانب الآخر جانب المحافظين والأثرياء ومالكى الأراضى ، فبدأوا حملة منظمة ضد أقطاب الأحزاب التقدمية • وفى البداية ، رد العمال والفلاحون على أول الاغتيالات التى أصابت زعماءهم بالاضرابات والمسيرات ضد قوى الرجعية ولكن ، حين استمرت سلسلة الهجوم والاغتيالات ازداد السخط الشعبى ، وبدأ التقدميون يردون بالمثل • واتسعت الهوة السحيقة التى تفصل بين الجانبين ، وأخذت تزداد اتساعا مع كل يوم يمر •

وفى ظل هذه الحالة ، يجرى فى ١٢ يولية ١٩٣٦ اغتيال أحد أفراد حرس الهجوم — وهى فرقة حكومية جمهورية — على يد مجهولين يظن أنهم من حزب « كفالانج » • وفى ١٣ يولية ، يرد الجمهوريون باغتيال قطب من أقطاب الملكيين هو « كالفو سوتيلو » وتعم البلاد موجة من الاستياء والغضب والرهبة ، بينما يظل مجلس الوزراء فى حالة انعقاد دائم فى محاولة للسيطرة على الموقف وتحسبا لأى انتقام يمكن أن يقوم به الملكيون ردا على تلك الضربة القاصمة • وفى وسط هذا الجو المشحون بالتوتر والانتظار ونذر الخطر التى تحيط بالجمهورية الوليدة ، يقع الانقلاب العسكرى الملكى •

ففى ١٨ يولية ١٩٣٦ ، يلقى الجنرال « فرانسيسكو فرانكو » بيانا من اذاعتى « جزر الكنارى » ومراكش الاسبانية » ، آنذاك ، معلنا قيام « الحركة الوطنية » ، طالبا من جميع الاسبان الوطنيين الانضمام اليه • وكان التمرد الانقلابى قد بدأ أساسا — بتدبير سابق معد له سلفا اعدادا محكما — فى حامية مدينة « مليلة » فى المغرب تعاونها الفرقة العسكرية الاسبانية الرابطة هناك • وحدث تمرد مماثل فى « سبته » « وتطوان » بنفس القدر من النجاح ، وبات المغرب الاسبانى كله وجزر الكنارى تحت امرة قادة الانقلاب ، الذين بدأوا الاستعداد لنقل التمرد الى أرض الوطن ذاته ••

وفى البداية ، أذاعت الحكومة الجمهورية نبأ وقوع تمرد فى مراكش الاسبانية ـ وهو ذلك الجزء من أراضى المغرب التى كانت تحتله اسبانيا آنذاك ـ ولكنها أكدت سيطرتها على الموقف فى أراضى الوطن وأنها بصدد سحق التمرد . ولكن كان قد خفى على القائمين بالأمر فى حكومة الجمهورية تواطؤ كثير من القادة العسكريين فى كثير من المدن الاسبانية الرئيسية للقيام بتمرد فى وقت واحد .. وهكذا سيطر « الجنرال كيبيو دى يانو » على حامية « اشبيلية » مما أسقط المدينة كلها فى قبضة الانقلاب . وحدث بعد ذلك نفس الشىء فى عدد من كبريات المدن ، بقدر متفاوت من النجاح والفشل، وكان هذا النجاح والفشل هو الذى قسم البلاد الى قسمين يكادان يتعادلان قوة : جانب الجمهوريين الذين قاتلوا التمرد دفاعا عن الشرعية ، وجانب الملكيين ـ الذين اتخذوا اسم الوطنين ـ الذين قاتلوا دفاعا عن الملكية والقوى المحافظة من كنيسة ومالكى أراضى وجنرالات . وقد انضم الى جانب الجمهوريين كل طوائف اليساريين والاشتراكيين والشيوعيين والفوضويين .

وكان هذا التعادل فى القوى هو الذى أشعل الحرب الأهلية بين الطرفين ، وجعلها تستمر ثلاثة أعوام الا قليلا ، فى حرب بين الأخ وأخيه ، عرفت بأنها أبشع حرب أهلية فى التاريخ وأشدها قسوة وضراوة .



غرناطـة ولوركـا

في قمة الأحداث التي سردناها سابقا ، وجد الشاعر نفسه يوم ١٨ يوليو ١٩٣٦ في بلدته ، يقضي الصيف كعادته في منزل العائلة بالفيلا المسماة « بستان سان فيسنت » في ضواحي غرناطة . كان قد حسم لتوه مشروعا كان يمكن أن يغير مجريات الأحداث التي انتهت به الى غاية فاجعة ، ذلك أن فرقة « مارجريتا شـيرجو » المسرحية كانت تعد لجولة في أمريكا اللاتينية في فترة الصـيف تبدأها بالمكسيك ، وعرضت على الشاعر أن يسـافر برفقتها الى هناك . ورغم أنه كان قد قبل الفكرة مبدئيا ، الا أنه الغى المشروع بعد ذلك ، مفضلا البقاء في اسبانيا للانتهاء من أعماله الأدبية المعلقة والاشراف على اخراج الأعمال المسرحية التي كانت توشك على أن ترى النور . وهكذا أنفذ القدر كلمته ، وبقي لوركا في وطنه في تلك الفترة المضطربة كيما يواجه مصيره المحتوم .

ورغم أن الشاعر كان بعيدا كل البعد عن المشاركة السياسية أو الانحياز صراحة الى أي من الأحزاب السـياسية المتصـارعة آنذاك ، الا أن ثمة أعمالا اشترك فيها قد حسبت عليه بعد ذلك ، رغم أنها مواقف انسانية تنبع أساسا من حب الانسانية والحرية . ومن بين هذه الأعمال مايلي :

ــ أن الشاعر ــ عند مشاركته في الحفل الذي اقيم لتكريم زميله « رافاييل البرتي » بمناسبة عودته من زيارة لروسيا ــ قد ألقى بيانا للكتاب الاسبان ضد الفاشية .

ـ انضمامه الى الموقعين على بيان للاتحاد العالمى للسلام ٠

ـ توقيعه على رسالة موجهة الى رئيس جمهورية البرازيل تطلب العفو عن القائد الثورى البرازيلى « لويس كارلوس برستس » ٠

ـ ادلائه بحديث الى مجلة « المساعدة » لسان حال عصبة عمالية شيوعية ٠

ـ اشتراكه فى تكريم ثلاثة أدباء فرنسيين يمثلون الجبهة الشعبية فى بلادهم وهم : « أندريه مالرو » ـ « جان كاسو » ـ « لى نورمان » ٠

ـ الاعلان عن اشتراكه فى حفل لتكريم « مكسيم جوركى » الكاتب الاشتراكى السوفيتى المعروف ٠

ان مثل هذه النشاطات العادية التى تنم عن حس انسانى عام وروح الأخوة بين زملاء المهنة الفكرية الواحدة ، يمكن أن تفسر فى ظل ظروف متغيرة تفسيرات ملتوية تلائم النفوس المتعصبة ضيقة الأفق التى ملأها الحقد والغيرة سما زعافا ٠ وكان هذا فى الواقع هو ماحدث فعلا ، وأحداث ذلك الصيف الدامى من عام ٣٦ دليل واضح على ذلك ٠ ورغم أن ماحدث للشاعر بعد وقوع الانقلاب الملكى فى ١٨ يوليو ١٩٣٦ يلفه تيار من الشك والغموض والأساطير، وتعرض لتفسيرات عديدة متناقضة ، الا أنه يمكن استخلاص سير الحوادث على النحو التالى :

منذ اعلان الجمهورية فى اسبانيا عام ١٩٣١ ، شهدت غرناطة صراعات عدة بين ملاك الأراضى الاقطاعيين الذين يسيطرون أيضا على صناعات السكر فى المنطقة الزراعية من غرناطة ، وبين الفلاحين والعمال المنضوين تحت لواء الحزب الاشتراكى « الاتحاد العام للعمال » ٠ وقد رأى هؤلاء الاقطاعيون فى الجمهورية خطرا يتهدد وضعهم وثرواتهم وامتيازاتهم ، فقرروا الانضواء تحت حزب من الأحزاب الملكية هو حزب « العمل الشعبى » ! ، الذى كان فرعه فى غرناطة يصدر جريدة تعبر عنه باسم « ايديال » التى أصبحت

لسان حال تلك الطبقة ٠ وكانت فى مقابلها الجريدة التى تعبر عن آراء الاشتراكيين والمثقفين فى غرناطة وهى « الحامى » التى يرجع تاريخ صدورها الى عام ١٨٧٩ ٠ وكان اليمينيون المحافظون يكسبون فى الغالب الانتخابات فى المناطق الزراعية ، حيث ملاك الأراضى ودهاقنة الاقطاع يضغطون على الفلاحين كيما يصوتوا لصـــالح المرشحين اليمينيين ، على الرغم من فوز اليساريين فى حواضر تلك الاقاليم ، كمدينة غرناطة مثلا ، مما كان ينتهى الى فوز اليمينيين بمقاعد الأغلبية المخصـــصة للاقليم كله فى البرلمان ، بينما يحوز اليســـاريون مقاعد الأقلية ٠ وقد شهدت الأعوام من ١٩٣١ حتى انقلاب ١٩٣٦ مصادمات عنيفة ومناوشات لا تنتهى بين الفريقين وصحيفتيهما ٠

وفى انتخابات فبراير ١٩٣٦ التى فازت فيها الجبهة الشعبية اليسارية بصفة عامة ، فاز اليمينييون فوزا حاسما فى غرناطة ٠ ولكن المرشحين التقدميين طعنوا فى صحة الانتخابات فى غرناطة وطالبوا البرلمان بالغائها واجراء انتخابات جديدة هناك ٠ ووافق البرلمان على ذلك وتم اجراء انتخابات جديدة فى ٣ مايو ١٩٣٦ أسفرت عن فوز اليساريين بجميع المقاعد المتخصصة لغرناطة فى البرلمان ٠ وما يهمنا فى هذا الشأن أن من بين المرشحين اليمينيين الذين فازوا فى الانتخابات الأولى الملغاة كان النائب المدعو « رامون رويث ألونصو » الذى سيرتبط اسمه ارتباطا وثيقا بأحداث اعتقال لوركا واعدامه كما سنرى لاحقا ٠

وقد أدى ابتعاد اليمينيين تماما عن تمثيل مدينتهم فى البرلمان الى توحيد صـــفوفهم والاعداد سرا للانتقام بتخـزين الأســـلحة والتحضير للاستيلاء على الحكم بالقوة ٠ كما أن ذلك عزز موقف « الفالانج » داخل اتحاد الأحزاب اليمينية وانتصار رأيه بضرورة استخدام العنف لصد المد اليسارى والشيوعى ٠ وزاد فى تسهيل مهمة اليمينيين بعض الانشقاق الذى وقع بين فروع الأحزاب التقدمية فى غرناطة حول تعيين عمدة للمدينة ، وهو بمثابة المحافظ ٠ ولم تجد هذه الأحزاب حلا الا فى اختيار الدكتور « مانويل مونتسينوس »،

الاشتراكى ، عمدة لغرناطة • وجدير بالذكر أن « مونتسينوس » هذا هو زوج « كونشا » شقيقة لوركا ، ولم يشغل منصبه ذاك سوى عشرة أيام ، اذ أنه كان من أوائل الأشخاص الذين أعدموا غداة الانقلاب الملكى •

وقد شهد تاريخ اسبانيا منذ أواخر القرن التاسع عشر أن الجيش كان هو العامل الحاسم فى ميدان السياسة ، وأن أى تغيير سياسى كبير يبدأ بانقلاب عسكرى ، مثلما جرى الحال فى صعود الجنرال بريمو دى ريفيرا الى السلطة فى عام ١٩٢٣ ، ثم صعود فرانكو بعد ذلك عام ١٩٣٩ • ولذلك فانه بعد الاعـــلان عن تمرد القوات الاسبانية فى المغرب وفى بعض المدن الاسبانية ، ونجاحها فى السيطرة على عدد من هذه المدن ومنها اشـــبيلية التى تتبعها غرناطة عسكريا ، شاع الاضطراب فى أرجاء الجو السياسى فى غرناطة ، وتطلعت الأنظار الى الحامية العسكرية المرابطة فيها •• وكان على رأس هذه الحامية الجنرال « ميجيل كامبنز » الذى أعلن ولاءه للجمهورية ، ولكن معظم مساعديه من الضباط كانوا متورطين حتى أقدامهم فى المؤامرة الانقلابية دون أن يدرى هو بذلك • ورغم أن عدد أفراد « الفالانج » والمنظمات اليمينية المماثلة فى غرناطة كان محدودا بالنسبة الى عدد العمال والفلاحين ، الا أن تخوف قادة المدينة الجمهوريين من توزيع الســلاح على الشـــعب للدفاع عن الجمهورية واصرارهم على عدم اتخاذ هذه الخطورة ، أدى الى انفساح المجال أمام اليمينيين بما كانوا قد خبأوه من أسلحة •

وهكذا ، ففى وســـط الانتظار والترقب فى غرناطة ، انتهز المتآمرون فى يوم ٢٠ يوليو فترة القيلولة التى تتعطل فيها الأعمال ويهجع الناس هنيهة بعد الغداء ـ خاصة فى جو غرناطة الشــــديد الحرارة فى الصيف ، فأنزلوا قواتهم الى المدينة واحتلوا المواقع الهامة فيها ، ونصـــبوا المدافع فى الميادين والطرق الرئيســـية ، واضطروا الحاكم العسكرى الى اصدار بيان يعلن حالة الحرب . وأقالوا الحاكم المدنى وعينوا بدله الضابط « خوسيه فالديس » الذى أصبح منذ ساعتها مسئولا عن المدينة وأرباضها وعن تطهيرها من

كل العناصر المعارضة للملكية او المشكوك فى ولائها لها ، عن طريق حمام دم غطى المنطقة كلها بالرعب والفزع · وما أن سيطر الموالون للانقلاب على مقاليد الأمور حتى تصدوا لهذه العملية التطهيرية ، التى بدأت بقصف وحشى على تجمعات العمال والفلاحين التى لجأت الى حى « البيازين » الشعبى العربى القديم تحتمى به وتتحصن فيه · وانتهى الأمر بسحق هذه التحصنات واعتقال معظم المدافعين واعدامهم بعد ذلك ·

وما ان حلت ليلة ٢٣ يوليو حتى كانت المدينة كلها فى يد اليمينيين الذين بدأوا فى الحال حمام دم لمعارضيهم السابقين ، فى مذبحة كبرى أودت بكثير من الأبرياء ، وانتهزها بعض ضعاف النفوس من المنتصرين لصب شرورهم الرخيصة والتنفيس عن أحقادهم الدفينة ·



لوركا والتطهير الدموى

ظل لوركا مترددا فيما اذا كان يجدر به السفر الى غرناطة أو البقاء فى مدريد حتى تنجلى الأزمة السـياسية المتفجـرة نتيجة للاغتيالات الأخيرة ، وانقسم أصدقاؤه بين محبذ للسـفر ومحبذ للبقاء • وقال أحدهم قولة شهيرة ترددت أصداؤها طويلا بعد ذلك ، اذ قال : « لو أن حربا نشبت فى بلادنا ونجا منها فرد واحد فقط لكان هذا الفرد هو لوركا ! » •

وهكذا استقل لوركا قطار الليل فى مساء ١٥ يوليو ، وودعه حتى عربة القطار صـديقه الشاعر « رافاييل ألبرتى » • ويحكى ألبرتى أنهما شاهدا بين أروقة القطار شخصا نفر منه لوركا وتوارى عن أنظاره حتى لا يحييه أو يحادثه ، وكان هذا الشخص ــ كما عرف لاحقا ــ هو « رامون رويث ألونصو » ، النائب اليمينى السابق لغرناطة فى البرلمان ، والمسئول المباشر عن اعتقال لوركا بعد ذلك •

ووصل الشاعر الى منزل العائلة الصيفى فى موعد مناسب للاحتفال مع الأسرة بعيد « القديس فديريكو » بالنسبة له ولوالده ، اذ أنهما كانا يشتركان فى الاسم الأول ، وهو اليوم الموافق ليوم الانقلاب : ١٨ يوليو •

وقد تلقت الأسرة أنباء الانقلاب وبيانات الحكومة وما تلا ذلك من أحداث ، ببلبلة واضطراب ، شأنها شأن كل سكان الاقليم من غير المتداخلين فى السياسة • ثم جاءت نذر الكارثة بعد استيلاء اليمينيين الموالين للانقلاب الملكى على المدينة ، اذ كان من أوائل

من تم القبض عليهم السنيور مونتيسينوس عمدة المدينة ، وهو زوج شقيقة لوركا ، والذى أعدم بعد ذلك بأيام · وقد علمت الأسرة بالقبض عليه فى حينه ، ولكنها لم تعلم باعدامه الا بعد ذلك بكثير ·

وبعد ذلك يفطن الشاعر الى وجود شخصين مريبين يراقبان المنزل ويطوفان به من بعيد · ثم عاود نفس الشخصين المراقبة ، ودخلا المنزل هذه المرة · ولكنهما لم يكونا يبحثان عن لوركا · بل عن البستانى المسئول عن حديقة المنزل ، وكان أخا لأحد العمال المنخرطين فى سلك الجبهة الشعبية · وكانت الأقوال تشير الى مسئولية ذلك الأخ عن مقتل أحد ضباط الشرطة ، وعن احراق كنيسة بلدته · ولما لم يجدوا غير البستانى ، أوسعوه ضربا ولطما · وحين حاول فديريكو التدخل ، لطماه هو أيضا ، وقال له واحد منهما : « لا فائدة · اننا نعرفك جيدا ، يافديريكو غرسيه لوركا ! » ·

وفى اليوم التالى ، يتلقى لوركا خطاب تهديد غريبا · كان الخطاب يحتوى على اقتباسات من تصريحات أدلى بها الشاعر ونشرت فى صحيفة « الحامى » الغرناطية التقدمية (وقد احتجبت بعد نجاح الانقلاب فى غرناطة بالطبع) · ويصفه كاتب الخطاب بأنه « كلب حقير وخطر » ·

وازاء ذلك كله ، ملأ الأسرة خوف مفاجىء على الشاعر من أن ينجح حساده فى توريطه مع معارضى النظام الجديد أو المشبوهين · وجلس أفرادها يتداولون فى أفضل حل يمكن اتخاذه لحماية لوركا فى ظل هذه الظروف التى لا يأمن أحد على نفسه ·· وبرز حلان : اما أن يحاول الشاعر الهرب متخفيا الى ماوراء خطوط قوات الانقلاب الى أقرب مكان يسيطر عليه الجمهوريون ، واما أن يلتجىء الى بيت صديق من الموالين للانقلاب يمكن أن يبسط عليه حمايته · واختار لوركا الحل الثانى ، خاصة وأنه كان على صلة جيدة جدا بأحد أفراد أسرة « روساليس » ، التى يشترك أربعة من أبنائها فى « الفالانج » ، والذين أصبحوا من أصحاب الحل والربط فى ظل الوضع الجديد · وكان ذلك الصديق هو « لوييس روسليس »

السياسى والشاعر الشاب الذى سبق أن نشر ديوانا باسم « ابريل » والذى كان يعتبر نفسه من حواريي لوركا شعريا . ويهب « لويس » لنجدة صديقه ، ويصطحبه للاقامة معه فى منزله .

ويقيم لوركا فى منزل أسرة « روساليس » ، التى تتكون من الأب والأم وابنة وعدد كبير من الأبناء ، منهم لويس وخوسيه وأنطونيو وميجيل ، وكلهم من العاملين فى « الفالانج » . وكانت بالمنزل أيضا خالة للأولاد هى الخالة « لويسا » وتقيم فى الطابق الثانى من المنزل ، وحيث أعدت الأسرة غرفة لوركا . ومنذ انفجار الانقلاب فى غرناطة ، انشغل أفراد الأسرة من أعضاء « الفالانج » فى عمليات تثبيت دعائم النظام الجديد والقضاء على أعدائه .

ويعتاد لوركا محل اقامته الجديد ، كعادته دائما فى سرعة الألفة مع الأشياء ، على الرغم من غموض الموقف ، وتردد الأنباء عن عمليات التطهير المستمرة فى المدينة وأرباضها . ويقضى الشاعر وقته فى التهام الكتب التى يجدها فى مكتبة أسرة « روساليس » العامرة . وسرعان ما تطفو شخصية الشاعر الأصيلة الطفولية للعيان ، فيعزف للخالة «لويسا» على البيانو ، بل ويشرع مرة أخرى فى مواصلة العمل فى مشاريعه الأدبية ، من اجراء بعض التنقيحات على مسرحية « بيت برناردا ألبا » ، الى التفكير فى ديوان جديد تحدث عنه الى الخالة بعنوان « حديقة الأغانى » .

وكانت علاقة الشاعر المباشرة بمن فى المنزل من أفراد العائلة هى مع لويس والخالة لويسا أكثر منها مع أى فرد آخر . وكان لويس يزوره كل مساء بعد عودته من خطوط القتال ، ويتناقشان معا فى الحالة والأخبار . وقص عليه لويس كيف سيطروا على غرناطة وأرباضها ، وكيف انتهت مقاومة الأفراد الذين التجأوا الى حى « البيازين » .. ولكنه أخفى عنه خبرا مؤلما ، هو اعدام عديله العمدة السابق لغرناطة بعد قليل من سقوط البيازين ، فى ٣ أغسطس ١٩٣٦ .

ولكن أشد الفواجع ايلاما تأتى دون تحسب ، فبعد أن اطمأن الشاعر أو كاد الى ابتعاده عن الخطر الداهم ، وقعت الواقعة .

الجريمــة كانت فى غرناطــة

فى الخامسة من بعد ظهر ١٨ أغسطس ، وكان رجال أسرة « روساليس » كلهم غائبين عن المنزل ، يدق جرس الباب ، ويتقدم أحد الأشخاص ـ هو بالتحديد « رامون رويث ألونصو » ســالف الذكر ـ يطلب اصطحاب لوركا ! وتحاول سيدة المنزل الاحتجاج ، ولكن « ألونصو » يصر على أنه لا خطأ فى الأمر ، وأن لوركا مطلوب فى مبنى المحافظة ٠

وتتضارب الأقوال فى ظروف القبض على لوركا فى منزل عائلة « روساليس » ، اذ يشهد ألونصو نفسه ـ وهو لايزال على قيد الحياة الآن ـ بأنه قد ذهب هناك لاستدعاء الشاعر بناء على أمر من نائب المحافظ ، وبعد أن اصطحب معه « خوسيه روساليس » نفسه ٠ ولكن شهودا آخرين يؤكدون أن « ألونصو » قد ذهب الى المنزل يصحبه عدد كبير من الجنود المســلحين الذين أحــاطوا بالمنزل وبالطرق المجاورة لمنع أية امكانية لهرب الشاعر ! ويؤكد « ايان جيبسون » فى كتابه الموثق عن مصرع لوركا وفترة الرعب التى شهدتها غرناطة فى ١٩٣٦ ، أن أكثر الروايات مصداقية عن ذلك هى رواية « ميجيل روساليس » ٠ ويحكى « ميجيل » أنه حين وصلت التجريدة المسلحة للقبض على لوركا ، لم يكن فى المنزل أى من رجال الأسرة ، فرفضت الأم تسليم لوركا لألونصو وأصرت على أن يذهب أولا الى ميجيل ليخبره بذلك ٠ ويذهب ألونصو لميجيل فى قيادة « الفالانج » حيث كان يعمل ، ويبرز له أمرا من المحافظة بالقبض على لوركا ٠ ويعود « ميجيل » معه الى المنزل حيث يصطحبان لوركا معهم الى مبنى

المحافظة ، بعد أن تأكد ميجيل من عبث أى اعتراض أو جدال أو مقاومة ، موقنا بامكانية شرح الموضوع للمحافظ نفسه وحله معه ٠

وحين يصلون الى مبنى المحافظة ، ويجدون المحافظ متغيبا ، ويتم ايداع لوركا فى احدى حجرات الاحتجاز انتظارا لوصوله ٠٠ وحين يعلم الشاعر الصديق « لويس » بأمر اعتقال صديقه ، يطير الى مبنى المحافظة حيث يحرر مذكرة بالموضوع أمام نائب المحافظ ، ويبرر فيها فى نفس الوقت الأسباب التى دعته الى استضافة لوركا فى بيته ٠ ويحكى « لويس » عن مواجهة حدثت بينه وبين « رويث ألونصو » عند تحرير المذكرة ، قال فيها « ألونصو » أنه قبض على لوركا تحت مسئوليته الخاصة ، متهما اياه بأنه قد سبب أضرارا بشعره أكثر مما سببه غيره من اضرار بأفعالهم !

ويعود « خوسيه » فى اليوم التالى لمقابلة المحافظ ، الذى يخبره أنه لايستطيع أن يفعل شيئا لأن لوركا ليس موجودا فى المحافظة ولا يدرى أين هو ٠ ولكن المحافظ « فالديس » كان يكذب . اذ أن لوركا كان وقتها مودعا فى أحدى حجرات المحافظة أعدت كزنزانة ، وقضى فيها ثلاثة أيام من ١٦ الى ١٨ أغسطس ، وتشهد بذلك مربية أسرة لوركا التى ذهبت تحمل له طعاما وملابس وسجائر وشاهدته مرة فى تلك الزنزانة العارية من الأثاث الا من مائدة عليها محبرة وقلم وورقة ، بينما كان ثمة رجل أمامه يردد : « ياالعار الابن ، ياالعار الأب ! » ، والحراس على باب الحجرة شاكى السلاح ٠ وتقول المربية أن لوركا هتف بها حين رآها : « أنجلينا ، انجلينا ٠٠ لماذا أتيت هنا ؟ » فردت عليه بأن والدته قد أرسلتها اليه

وفى ١٩ أغسطس ، حين ذهبت « أنجلينا » بسلة الطعام للسجين ، قال لها الحراس انه لم يعد موجودا بالمحافظة ، وانهم لا يعرفون عنه أى شىء ٠ ولم يعرف أحد ما حدث على وجه التحقيق ، ولكن كل الشواهد تدل على أن لوركا قد بقى فى مبنى المحافظة حتى نقل فجر ١٩ أغسطس الى المكان الذى تم اعدامه فيه ٠

وقد بذلت مساع كثيرة خلال تلك الأيام لانقاذ الشاعر ، منها محاولة الموسيقار « دى فايا » التوسط من أجله عن طريق بعض شباب « الفالانخ » الذين كان على صلة بهم · ويحكى انه ذهب معهم الى المحافظة صباح ١٩ أغسطس ، ثم عاد واحد منهم متجهم الوجه ليخبره بأن الأمر قد خرج من أيديهم ، اذ انه قد تم اعدام الشاعر فى فجر نفس اليوم !

وتفاصيل ماحدث ، كما يذكر المؤلف « جيبسون » سالف الذكر، هو أن الكولونيل « فالديس » محافظ غرناطة قام بالتوقيع على حكم اعدام لوركا بعد اتصالات أجراها برئيسه المباشر « كيبو دى يانو » قائد اشبيلية التى تتبعها مقاطعة غرناطة · واقتيد الشـــاعر مع مجموعة من المحكوم عليهم مثله من مبنى المحافظة الى قرية على مشارف المدينة تدعى « فرنار » ، بها مبنى يسمى « لاكولونيا » اى المستعمرة ، حولته قيادة الانقلاب الى سجن يودع فيه المحكوم عليهم بالاعدام المرسلون من غرناطة · وكان المدانون يصلون عادة الى « المستعمرة » حوالى الواحدة أو الثانية صباحا ، فيحبسونهم فى الطابق السفلى حتى الفجر · وكانوا يسمحون لمن يريد منهم الادلاء بالاعتراف الأخير الى قسيس القرية · وعند الفجر ، يقود الحراس المحكوم عليهم بالاعدام الى مكان حول السجن حيث يطلقون عليهم النار ، ويتركونهم حيث يسقطون ، الى أن يرسلوا بعد ذلك بفرقة عهدوا اليها دفنهم جماعيا فى الأماكن التى سقطوا فيها ·

وتشير كل الدلائل الى أن هذا هو ماحدث مع لوركا · فبعد أن قضى ساعات قليلة فى سجن « المستعمرة » ، اقتيد فى الفجر بصحبة المقرر اعدامهم يومها ، وكان منهم اثنان من مصـــارعى الثيران العاملين فى صـــفوف الشـــيوعيين والمعروفين بالتطرف السياسى ، وهبطوا بهم الى مكان قريب لايزال يدعى بالاسم العربى له وهو « عين الدمعة » (Aainadamar)، حيث أطلقـــوا عليهم الرصاص ، لتظل جثثهم بعد ذلك فى مكانها الى أن يحضر اللحادون ليدفنوهم تحت احدى أشجار الزيتون ·

وهكذا يقضى الشاعر الأندلسى الذى جرؤ يوما على أن يقول :
- سقوط غرناطة العربية فى يد الاسبان كان كارثة على الحضارة والمدنية ، وبقى مدفونا تحت الأشجار الحبيبة الى قلبه ، دون أن يعرف له أحد قبرا حتى الآن ، لتصدق النبوءة التى رددها يوماً فى احدى قصائده حين يقول :

عبر أشجار الغار
تطير حمامتان دكناوان
كانت أولاهما الشمس
والأخرى كانت القمر
قلت لهما : أيا جارتيا ،
أين قبرى ؟
قالت الشمس : فى ذيلى
وقال القمر : فى حلقى .



ما وراء الحادث

لم يكن للوركا أى انتماء حزبى محدد ، فهو كمعظم الفنانين يحب أن يكون حرا لا يقيده قيد ثقيل يشل حركته وتفكيره ، اذ كان الانسان هو هدفه ، وأعظم به من هدف . غير أنه ككل فنان مرهف الحس لايمكن أن ينفصل عن القضايا الانسانية العامة فى كل زمان ومكان : قضايا العدالة والحرية والحب والخير . وهكذا كان يقترب بوجدانه وفنه من الشعب وقضاياه ، ومن الفقراء والمحررين والبؤساء والمظلومين .

غير أن هذا « الالتزام الانسانى » الذى لا يستطيع أى فنان أصيل الا أن يحتذيه ، لم يكن ليرضى أفراد الفريق المحافظ ، الذين يرون فى مبادىء ذلك الالتزام انتقاص لسلطتهم وحقوقهم وممتلكاتهم .. كذلك فقد حملت روح الفن شاعرنا على السير فى درب الحداثة أيامها وتبدت على شكل ثورته على بعض التقاليد المرعية ــ من التزام بالعادات والأعراف المرعية والورع الدينى ــ واستهانته بها ، وتبنيه للغريب من السلوك والملابس ، مما كان يملأ صدور بعض أهل بلدته غرناطة ــ من الأثرياء والاقطاعيين المحافظين ــ بالاستهجان والاحتجاج . ونضيف الى هذا مهاجمة الشاعر فى أعماله الفنية ، للسلطة التى تحد من حرية الانسان ، وقد تبدت هذه السلطة أكثر ما تبدت فى الحرس المدنى الذى ناله الكثير من الانتقاد والهجوم فى كثير من قصائده .

كل ذلك قد ساعد على رسم صورة معينة للشاعر ــ ان لم تكن بوصفه تقدميا صرفا ــ فعلى الأقل بكونه لا يسير على نهج المحافظين

التقليديين ولايتعاطف معهم ، بل يتعاطف مع الأهداف التقدمية التي تناصر الفقراء والمحررين والمستضعفين . وقد ساعد ذلك على تصنيف الشاعر - من قبل النفوس الحاقدة التي يعميها الحسد والغيرة - ضمن تصنيفات سياسية معينة ، حتى اذا انفجر بركان الانقلاب وسالت الدماء أنهارا ، أدرج الشاعر ضمن من يحرص قادة الانقلاب على ضرورة تصفيتهم . وأدى كل ذلك الى النهاية الفاجعة التي وصفناها سابقا .

وقد انفجر خبر مصرع الشاعر في وسط هذه الظروف السياسية المضطربة في اسبانيا فكان له دوى هائل في العالم بأسره . ونشرت الصحف الجمهورية في مدريد النبأ كدلالة على وحشية مدبرى الانقلاب وعدم انسانيتهم ، التي جعلتهم لا يفرقون بين برىء ومذنب ولا يميزون الشخصيات التي تعتز بها البلاد . ولكن صحف العالم رددت النبأ بوصفه خسارة عظيمة منى بها الأدب والشعر ، اللذان لا يعرفان مكانا ولا زمانا . وسارع اتحاد القلم الدولى P.E.N. ممثلا برئيسه الكاتب والمفكر المشهور هـ . ج . ويلز بارسال برقية يستفسر فيها عن مصير الشاعر ، ولم يتلق الا بضع سطور مبهمة بتوقيع الكولونيل « فالديس » محافظ غرناطة ، تقول : « لا أعرف مكان السيد فديريكو غرسيه لوركا » !

وقد نعى الكتاب والفنانون مصرع الشاعر في قصائد ومقالات اشتهرت في تاريخ الأدب المعاصر ، منها مرثيات لبابلو نيروزا ، وأنطونيو متشاور ، ورفاييل ألبرتى ، وميجيل ارناندث ، وغيرهم كثيرون . كما كتب عدد من الشعراء العرب في فضل لوركا وعن مصرعه الغاشم ، منهم صلاح عبد الصبور ومحمود درويش وعبد الوهاب البياتي ونزار قباني .

وكان الصحفيون والكتاب قد تناقلوا خبر مصرع لوركا بوصفه عملا من أعمال قادة الانقلاب الملكى ، ولكن سلطات الانقلاب ظلت تتجاهل هذا الأمر ، بل وتتعمد التشويش عليه باشاعات بأن الشاعر قدقتل في برشلونة على يد الشيوعيين ، الى أن لم يعد في

الامكان تجاهل الموضـــوع ، فكآن أن أجاب الجنرال فرانكو على سؤال لأحد الصحفيين عن مصرع لوركا - فى مقابلة صحفية فى نوفمبر ١٩٣٧ - بما يلى :

« لقد ثار حديث طويل فى الخارج عن كاتب غرناطى ، الذى لا أعرف أنا مقدار شـــهرته خارج الحدود •• والحقيقة أنه فى اللحظات الأولى من الثورة فى غرناطة ، مات ذلك الكاتب بعد الخلط بينه وبين المنشقين • انها من الحوادث الطبيعية فى الحروب •• ولقد كان فقده - بوصفه شاعرا - مما يؤسى له • وقد استغلت الدعاية الشيوعية تلك الحادثة لاثارة عالم الفكر والثقافة ، غير أنه لا أحد يذكر فى مقابل ذلك كيف اغتيلت شخصيات أخرى كثيرة فى الجانب الآخر •• » •

وظلت هذه هى الرواية الرسمية عن الحادث ، بأنه كان نتيجة أحداث الحروب التى يروح فيها البرىء أحيانا ، حتى أن اشعار وفاة الشاعر ، الذى عملت أسرته على استصداره من بلدية غرناطة لمواجهة المسائل الادارية من ارث وخلافه ، يذكر سبب وفاته على أنه « نتيجة جروح ناشئة عن الأعمال الحربية ، حيث عثر على جثته فى اليوم العشرين من نفس الشهر (أغسطس ١٩٣٦) فى الطريق الموصل بين « فرنار » و « والفقار » •



الشمس تشرق من جديد

بعد انتصــــار قوات فرانكو الملكية وسـيطرتها سيطرة كاملة على اسبانيا كلها فى عام ١٩٣٩ ، ظل اسم لوركا حتى عام ١٩٤٩ محرما ذكره فى أى صحيفة أو كتاب يصدر فى اسبانيا ، ولم تكن ثمة عروض لمسرحياته ، ولا ذكر له فى كتب الأدب الاسبانى الحديث التى تدرس فى المدارس والجامعات الاسبانية · وشهدت هذه الفترة أيضا اندحار الفاشستيات الألمانية والايطالية واليابانية ، وانقسام العالم الى معسكر ليبرالى وآخر اشتراكى · ونظر كل من المعسكرين الى نظام فرانكو بوصفه أثرا من آثار فاشستية الثلاثينات ، وتكونت جمعيات وروابط من الأسبان المنفيين فى الخارج للعمل على اسقاط ذلك النظام بكل الوسائل · ولذلك كان طبيعيا أن ينظر الى لوركا بوصفه نجما من نجوم الحرية ، الى جانب فضائله فى عالم الأدب والشعر والفن · وقد دفعت هذه الظروف المتعددة بدور النشر فى جميع أنحاء العالم ـ عدا اسبانيا ـ الى التسابق فى اصدار كتبه وترجماتها الى اللغات الحية ، والى البحث عن مخطوطات أعماله التى لم تنشر لاصـــدارها ، ودفعت الفرق المســـرحية الى ادخال مسرحيات لوركا ضمن برامجها على الدوام · وهكذا ظهر فى عام ١٩٤٠ « ديوان التماريت » يضم آخر قصائد لوركا ، ونشره لأول مرة المعهد الاســبانى بنيويورك · كما صـــدر فى العام نفســـه ـ بالمكسيك ـ ديوان « شاعر فى نيويورك » وفى عام ١٩٤٥ ، عرضت لأول مرة مسرحية « بيت برناردا ألبا » فى بوينس آيرس بالارجنتين · وهى من المسرحيات التى أعطاها مؤلفها عنوانا جانبيا آخر هو « دراما عن النساء فى القرى الاسبانية » وقال عنها ان فصولها

الثلاثة تهدف الى تقديم « وثيقة فوتوغرافية لقرى اسبانيا » · وتحكى المسرحية قصة بيت ريفى يضم نساء فقط : أم مسيطرة صارمة ، وخمس بنات ، وخادمتان ، يعشن جميعا فى ظل حداد على رب البيت الذى مات لتوه عند بدء أحداث المسرحية · وتصور الأحداث رد فعل البنات الخمس تجاه مصير العزلة والحداد الذى تفرضه عليهن أمهن برناردا ألبا ، وتجاه القسوة التى تطبق بها الأم معايير الشرف الاسبانى التى تتسم بالضراوة والحزم · ويزيد من هذا كله التوتر الهائل الذى يفرضه جو الريف الملىء بالاشاعات والأقاويل · وتسير الأحداث ـ كما فى كل تراجيديات لوركا ـ الى نهاية محتومة ، من موت الابنة الصغرى التى تنتحر بعد ضعفها أمام خطيب أختها الكبرى وبعد أن تعتقد خطأ أن الأم قد قتلته ·· ولكن كل ما يهم الأم فى هذا أن ابنتها قد ماتت دون أن تفقد شرفها ·

وظل اسم لوركا مبعدا عن وطنه حتى عام ١٩٤٩ ، حين بدأت بوادر المصالحة بين العالم الليبرالى واسبانيا فرانكو ، بعد أن تبين فشل الجهود التى بذلت لتغيير النظام فى اسبانيا ، فعملت الدول الغربية على كسبها الى جانبها فى صراعها ضد العالم الشيوعى · ومع تلك البوادر ، نشر الشاعر « لويس روساليس » ـ صديق لوركا وآخر من رآه من الأصدقاء على قيد الحياة ـ بعض القصائد التى لم تنشر من قبل للوركا ، فى مجلتين أدبيتين اسبانيتين ، وفى عام ١٩٥٤ ، أصدرت دار نشر « أجيلار » ـ كبرى دور النشر الاسبانية ـ أول طبعة من الأعمال الكاملة للوركا · وقد خضعت التعليقات على حياة الشاعر فى هذا السفر لرقابة صارمة ، بحيث جاء فى نهاية الدليل التاريخى لحياة الشاعر سطر واحد مبهم ، كما يلى :

١٩ أغسطس ١٩٣٦ : يموت ·

وتالى بعد ذلك ذوبان الثلوج فى وطن الشاعر تجاهه ، الى أن لم يعد ثمة كتاب مدرسى أدبى يخلو من ذكر لوركا ووضعه الممتاز فى تاريخ الأدب الاسبانى الحديث · وتتابع ظهور أعمال مجهولة له ، منها مسرحية « الجمهور » وأوبرا كوميدية بعنوان «الممثلة لولا» كان لوركا قد كتبها كيما يعد موسيقاها « مانويل دى فايا » ولم يتم المشروع ·

وقد لمس كاتب هذه السطور مدى انتشار أعمال الشاعر ومسرحياته في اسبانيا ابان أقامته في مدريد في الفترة من ١٩٦٩ ـ ١٩٧٤ خلال السنوات الأخيرة من حكم فرانكو ، حيث كان انتاجه يعرض بصورة عادية ، مع توفر جميع الكتب الأجنبية التي تتناول ظروف مصرع الشاعر في مكتبات اسبانيا ٠

ولكن تتويج اعتراف البلاد بشاعرها العظيم لم يأت الا بدءا من عام ١٩٧٦ ـ بعد وفاة الجنرال فرانكو وانتهاج خليفته الملك « خوان كارلوس » النهج الديمقراطي في حكم البلاد ـ حين أقيم مهرجان فني كبير في غرناطة في ذلك العام احتفالا بذكرى الشاعر حيث تبارى المحتفلون في الاشادة بذكره والمطالبة بتخليد ذكراه على صورة نصب تذكاري يقام في بلدته ٠ ومن المظاهر الأخرى الهامة ، صدور طابع بريد تذكاري تكريما للشاعر وتخليدا لذكراه ولمكانته في تاريخ الأدب الاسباني الحديث ٠

وهكذا مهما طال الزمن ومهما تضافرت الظروف المعاكسة على اخفاء أقدار الأصلاء ، فلابد أن تنقشع السحب آخر الأمر وتبرز الحقيقة أمام العيون ٠ ولعل خير ما نختتم به هذا الكتاب عن الشاعر الذي مرق كالشهاب في سماء الأدب العالمي ثم ترك وراءه نورا باقيا على مر العصور ، هو القصيدة التي رثاه بها غداة مصرعه صديقه الشاعر «بابلو نيرودا » بعنوان « أنشودة الى لوركا » :

لو أمكنني أن أبكي من الخوف في بيت مهجور
لو أمكنني أن أنزع عيني وآكلهما
لفعلت ذلك حزنا على صوتك البرتقالي المتشح بالسواد
وحزنا على أشعارك التي تهب صارخة ٠



لأجلك صبغت المستشفيات بالزرقة نوافذها
وانتشرت المدارس والأحياء المطلة على البحار

ونما الريش فى أجساد الملائكة المثخنة بالجراح
وغطت الزعانف الأسماك السماوية ٠
لأجلك
طارت القنافذ الى السماوات العلى ٠
لأجلك امتلأت محلات الخياطين ذات الأنسجة السوداء
بالملاعق وبالدماء
وابتلعت شرائط حمراء
وصرعت بعضها البعض بالقبلات
واتشحت بالملابس البيضاء ٠



حين تحلق طائرا متشحا بالملابس الخوخية
حين تضحك ضحكة عيدان الأرز يعصف بها الريح
حين تغنى فتهز العروق والاسنان
والحناجر والأصابع
أموت أنا من فرط حسرتى على عذوبتك
أموت على البحيرات الحمراء
التى تحيا فيها وسط الخريف
مع الفرس المنهار والاله الذى ينزف دما
أموت على المقابر التى تسرى كالأنهار الرمادية
بمياهها وقبورها
فى الليل كأنها أجراس غرقى
أنهار كثيفة كأنها عنابر جنود مرضى
تتحول فجأة على حدود الموت
الى أنهار ذات أرقام مرمرية

وتيجان متعفنة وزيوت جنائزية .
أموت من أجل أن أراك
ترقب فى الليل مرور الصلبان المطمورة
واقفا تبكى
لأنك تبكى فى وجه نهر الموت
مهجورا ، مثخنا بالجراح
تبكى باكيا ، وعيناك
مفعمتان بالدموع ، بالدموع ، بالدموع



لو أننى استطعت وحيدا فى الليل
أنى أجمع النسيان والظلال والدخان
وأنشرها فوق القطارات والبواخر
من خلال قمع أسود
بينما أمضغ الرماد
لفعلت ذلك من أجل الشجرة التى تنمو معها
من أجل أعشاش المياه الموشاة التى تجمعها
من أجل اللبلاب الذى يغطى عظامك
ويبوح لك بأسرار الليالى .



مدائن تفوح منها رائحة الأبصال المبتلة
تنتظر ظهورك منشدا بصوتك الأجش
بينما تتبعك
سفن صموته محملة بالعنبر

وعصافير خضراء تبنى أوكارها فى شعرك
وثمة قواقع وأيام وصوارى وأشجار كرز
تدور وتلف
حتى تصل الى رأسك الشاحب
ذى العيون الخمسة عشر
وفمك ذى الدم الغريق ٠



لو استطعت أن أملأ البلاد بالسواد
وأن أهدم الساعات من البكاء
لفعلت ذلك من أجل أن أشهد أمام منزلك
مجىء الصيف بشفاهه المحطومة
مجىء العديد من الأشخاص متشحين بثياب الموت
مجىء الأرض ذات البهاء الحزين
مجىء المحاريث الميتة وشقائق النعمان
مجىء حفارى القبور والفرسان
مجىء الكواكب والخرائط تنزف دما
مجىء الغواصين يغطيهم الرماد
مجىء الملثمين يجرون العذارى
وقد غاصت فى أجسادهن النصال الطويلة
مجىء الجذور والعروق والمستشفيات والينابيع والنملات
مجىء الليل
ومعه الفراش الذى يموت عليه جندى مهجور
وسط خيوط العنكبوت
مجىء زهرة الكراهية ، والوخزات .

مجيء السفائن المعصفرة
مجيء نهار عاصف واطفال
مجييء أنا ، ومعى اوليفر
ونورا ، وفيثنتى الكساندرى ، وداليا ، وماروكا ،
ومالفا ، ومارينا ، وماريا لويزا ، ولاركو ،
وروبيا ، ورافاييل ، وأوجارتى ،
وكوتابوس ، ورآفاييل البرتى ،
وكارلوس ، وبيبى ، ومانولو التولاجيرى ،
ومولينارى
وروساليس ، وكونشامندس ،
وآخرون غابوا عن ذاكرتى

*

تعال أضع التاج على هامتك
يافتى الأصحاء والفراشات
أيها الفتى النقى
كأنك الزنجى البارق الطليق أبدا .
تعال نتحادث سويا
الآن ، حيث لا أحد يقعى بين الصخور
نتحادث ببساطة
كعادتنا أنا وأنت .
ما فائدة الأشعار لو لم تكن من أجل الندى ؟

*

ما فائدة الأشعار لو لم تكن من أجل ليلة مثل هذه الليلة ؟
حيث تبعنا خنجر مرير ،

لذلك اليوم
لذلك الشفق
لذلك الركن المحطوم
حيث يتهيأ للموت فؤاد الانسان الكسير ؟



فى الليل فوق كل شيء ·
فى الليل ترصع السماء أنجم كثيرة
كلها فى محيط نهر واحد
كأنها شرائط معلقة
على نوافذ البيوت التى تزخر بالمساكين ·



ربما مات لهم قريب
ربما فقدوا وظائفهم فى المكتب ·
فى المستشفيات ، فى المصاعد ،
وفى المناجم
تقاسى الخلائق وقد اثقلتها الجراح
وثمة عزم وأنين فى كل ناحية
بينما الأنجم تجرى فى محيط نهر لا نهاية له
ثمة أنين طاغ يصاعد من كل نافذة
والأبواب قد تهاوت من الأنات
والغرفات ابتلت من الأنين
الذى يأتى فى موجات تبتلع الأبسطة



فديريكو !
انك ترى الدنيا الآن
ترى الطرقات والحمض
والوداع على أرصفة المحطات
حين يرفع الدخان أطواقه الحاسمة
الى حيث لا شيء
سوى الفراق والأحجار والقضبان الحديدية ·



مئات من الناس
يتساءلون فى كل ناحية
هناك الضرير الدامى ، والثائر ،
والخائر ، والبائس ، وذو الأظافر المورقة ،
وقاطع الطريق يحمل أحقاده فوق كتفيه ·



هكذا الدنيا يا فديريكو
هاك الأشياء التى بوسع صداقتى أن تقدمها لك
صداقة الرجل الكئيب الرجولى ·
لقد علمت الكثير من الأشياء بنفسك
ولسوف تعلم أشياء أخرى
تأتى فى بطء ·



مراجع الكتــاب

— Federico García Lorca :
Obras Completas, Aguilur, Madrid, 1972.

— José Luis Cano :
García, Lorca, Destino Libra, 1974.

— Francisco García Lorca :
Federico y su Mundo, Alianza Editorial, 1980.

— Mildred Adams :
García Lorca, G.B. Inc., 1977.

— Ian Gibson :
La Muerte de García Lorca , Ruedo Iberica, 1976.

— Marcelle Auclaire :
Enfances et Mort de García Lorca, Editions du Senil, 1968.

— Claude Couffon :
Granada y García Lorca, Editorial Losada, Buens Aires, 1967.

— Edited by : Ildefonso — Manuel Gil :
Federico García Lorca, Taurus Ldiciones, Madrid, 1973.

— Guillermo Díaz — Plaja :
Federico García Lorca, Espasa .. Clape, Medrid, 1973.

— Edwin Honig :
García Lorca, Jonathan Cape, London, 1968.

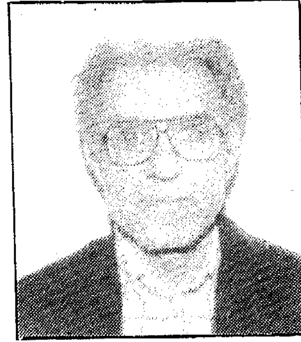
— Antony Beever :
The Spanish Civil War, Peter Bedrick Books, New York, 1983.

الفهـــرس

رقم الايداع ٨١٧٨/١٩٩٢

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 4162 — 9

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



لوركا أشهر شاعر أسبانى فى العصر الحديث ، وقد خلف لنا من الشعر والمسرحيات والمقالات والرسم مما يضـارع تراث جيل كامل من الفنانـين . ويمزج الكتـاب بين أحـداث حياة الشاعر وبين ما أنتجه من أدب وفن ، ويقدم نماذج كاملة لأهم أشعاره وعرضاً وافياً لمسرحياته وكتبه ويقـدم هذا الكتـاب ولأول مرة فى اللغة العربية شرحا مفصلا للوقائع التى أدت إلى مصبرع لوركا غداة الحرب الأهلية التى عصفت بأسبانيا طوال ثلاث سنوات .

والمؤلف هو الأستاذ ماهر حسن البطوطى المتخصص فى الأدب الأسبانى والذى عمل سنوات طويلة فى المعهد المصرى للدراسات الأسبانية بمدريد ، وأصدر ترجمات عديدة لـ لوركا ، ومسرحية روزيتا العانس ، ولـه دراسات عـديد الأدب الأسبانى وأدب أمريكا اللاتينية .



٢٢٥ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للـ